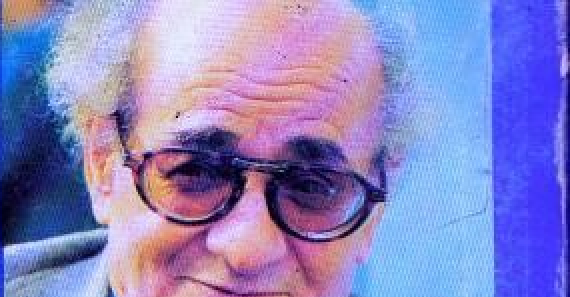
الأعمال الكاملة:
خيرى شلبى



الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى

سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء

• أولنا ولد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة..

خيرى شلبى

(٤)

الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى
سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء.

١ ـ أولنا ولد

٢ ـ وثانينا الكومى

٣ ـ وثالثنا الورق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

تصميم الغلاف:

الإخراج الفنى: **هاشم الأشمونى**

أولنا ولد

البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين. أما بعد فهذه أمالى الحاج «حسن أبو على» ولْد خالى «عبد الباسط عواد»، الشهير بابى ضب. أملاها علىّ فى بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو، ومن خلفنا المساند القطيفة الملونة، فى شرفة شقته المقامة فى الدور السابع فوق سطح عمارته المهيبة الواقفة كالعروسة الحورية فوق أعلى قمة من جبل المقطم الأغر، حيث يتربع «حسن أبو على» ولد خالى فى غاية من الأطمئنان بعد اذ لم يعد مطلوبا منه أى شىء على الاطلاق، وبعد أن تغلغل فى كل شىء فى البلاد، وبات حاكما بامره يخطب الجميع ودّه ويتملقونه ويمسحون له الجوخ فى كل مكان، وبعد أن زهد فى كل شىء منذ أن توفرت له كافة السلطات، ولم يعد يطلب من الله غير الستر ومغادرة هذه الحياة الفانية فى سر هادىء يمكنه من النظر فى أمر الحياة الباقية، تلك التى لم يعطها من قبل نظرا على الاطلاق الا فى أواخر ايامه.

القاهرة الكبرى تبدو أمامنا كاطلال مدينة خرافية تهدمت ولم يبق منها سوى أورام كالحة فى النهار كئيبة فى الليل رغم بريق الأضواء المنبعث من خلال الهديم. وقد ضمن ولد خالى لأولاده كل شىء وأطمأن إلى أن مستقبل البلاد كله سيظل فى أيديهم لقرون طويلة من الزمن قادمة.

وكنت مشغوفا بالفرجة على التليفزيون الملون المفتوح دائما فى صدر البهو الكبير يعرض اذرعا وسيقانا وخصورا ورقصا وغناء وتهريجا ونواحا. ولكن ولد خالى كان يسخر منى دائما وينهانى عن الفرجة.

قلت له: ياولد الخال لماذا لا تتركنى أتفرج على ما فيه من افلام وتصاوير؟

قال: ولماذا الأفلام والتصاوير ياولدى؟ أنا عندى لك من الأفلام والتصاوير ما هو أحسن من هذه وانفع!

قلت له: يا ولد الخال ولكن الحكاوى التى ستحكيها لى ليس فيها تصاوير اللحم الأبيض المخروط فى قوالب زبدة وقشطة!

قال بعفوية دون أن يدرى: عندى من هذا اللحم أكثر مما يشتهى الخلق كلهم! ستشبع لحما وزبدا وقشطة!

ثم بان الغضب اللطيف على وجهه فجاة، وبرق فى عينيه ذلك البريق اللاهب. ولو لم أكن أعرف طبع ولد خالى لظننت

من هذه الغضبة الصامتة أنه سيفتك بى لا محالة. نفس الخديعة التى يقع فيها كل من يرى هذه النظرة فى عينيه وهذه الشدة على وجهه لأول مرة.

فوجهه مثلث الشكل منحوت يشبه مبخرة فخارية، يشبه الجوافاية المتقيحة الناشفة. عيناه ثقبان عميقان يندفع منهما بريق حاد كعمودين من الضوء مفتوحين على الشمس. فى عينيه ألف قتيل وقتيل دفنهم ومشى فى جنازاتهم باكيا بحرقة بدهاء ملفوف فى براءة تصل إلى حد البلاهة أحيانا. لا يستطيع مخلوق ـ مهما كان أريباً ذكيا ابن حرام ـ أن يفصل بين المجرم العتيد فى ولد خالى وبين بلاهة الصعيدى القحف. العشرة الطويلة وحدها هى التى تستطيع أن تريك الرجل الطيب فى ولد خالى. شيئا فشيئا سيقل رعبك من شخطته ذات الرنين الخشن القاسى، ويخف انزعاجك من التواء الشر فى ملامحه ولهيب النار فى عينيه. ستتجاوز عن تشويحة ذراعه فى وجهك بيد وأصابع سرحة وذراع تتبختر وسط فتحة كم عريضة. لن يغرنك طوله الشامخ حين ينتفض واقفا ليؤنب فى غضب جريح أو يصرخ فى رثاء الأدب والأخلاق والرجال وأهل زمان.. لسوف تعرف أن هذه الفزعة الجبارة هى آخر ما تبقى له من سلطاته القديمة التى نبذها غير آسف عليها، وآخر ذبالة من ضوء سيادته التى اطفاها بنفسه زهدا واحتقارا منه لشانها.

أشد حالات هياجه وعراكه ينهيها اذان الصلاة، حيث يضطر هو إلى الاستجابة الفورية بالرد على صوت المؤذن صائحا: الله اعظم والعزة لله.. ثم يصلح عمامته الصعيدية الصغيرة كانها البرام الأبيض، ويولى هامته العالية نحو المسجد رافعا حاجبيه عن نظرة ثاقبة تتلصص تتدبر هى نظرة ولد خالى «حسن عبد الباسط» الشهير بأبى ضب، نظرة تريد أن تخترق النفوس لتعرف ما بداخلها على وجه الدقة واليقين. فإذا رأى كوب ماء فى يد أحد ساعة الاذان انقضت يده عليه فرشف منه وتمضمض ثم واصل الاندفاع نحو المسجد. وعند خروجه من الصلاة يترك مسجد السلطان برقوق ويدخل المقهى الذى تعود أن يلتقى فيه بصحابه الحجاج عصر كل يوم ليدخنوا لهم ما يربو على خمسمائة حجر من الحشيش على قارعة الطريق، وربما وجد من كانوا يتعاركون معه قبل الصلاة جالسين، فإذا هو يجلس بينهم يبادلهم الحديث بود عميق كان شيئا لم يكن.

وأما أنا فلست أستطيع بل لست أملك أن أرفض لولد خالى طلبا. لقد كان هو الحافز الأكبر لأبى وأمى بان يربيانى على التعليم لعلنى أعيد إلى الوجود شهرة أخوالى الفقهاء. فالحقنى أبى بالكتاب فى بلدتنا «كوم سعيد»، فحفظت القرآن وجودته ثم التحقت بالمعهد الدينى فى أسيوط ثم جئت أخيرا لأتعلم فى الأزهر الشريف مثل رفاعه الطهطاوى ومحمد

عبده وطه حسين وأخوالى. وهكذا قدر لى أن انتقل من «كوم سعيد» بالغنايم قبلى إلى الأزهر الشريف طالب علم، أسكن فى دار ولد خالى ولا غرو. وقد رحب بى أيما ترحيب، فأفرد لى شقة خاصة أرتع فيها وحدى كاولاد الباشوات، وتكفل بمصاريفى وكسوتى حتى بات أهلى لا يعرفون عنى أى شىء وإن رأونى فقد لا يعرفوننى من فرط ما طرأ على من نعيم مقيم، يكفى أننى أذهب إلى الأزهر كل يوم فى سيارته المرسيدس وسائقه يوصلنى بحقيبة الكتب حتى محل الدرس، ويعود ليحملنى إلى الدار، أقصد القصر المنيف.

ولقد بات ولد خالى يجد لذة عظمى فى توجيهى والاشراف على واستحثاثى على الجد والاجتهاد باخلاص عميق لا أظنه يتوفر فى أبى نفسه. ثم أننى درست ولد خالى عجنته وخبزته. عرفت عنه الكثير مما تقشعر منه الأبدان لكننى مع ذلك أحببته. وكلما ضقت به وباشرافه وثرثرته تذكرت أن الواقع دائما فى صفه. والغريب أننى كلما دققت فى الاستماع إليه وجدت حكما خطيرة وجنيت فوائد جمة لا تحصى. بصراحة وجدته على حق، اذ أطلت المكوث أمام الشاشة الملونة فاصابنى التكرار بالكآبة والرغبات السفلية، ونظرت فى كتب الدراسة فما وجدت إلا علوما تتقعر فى الفراغ بعيدا عن مجريات الحياة، علوم هذه الكتب كلها تسير فى واد وتسير حياتنا فى واد آخر، وليس ثمة من صلة بينهما على

الاطلاق فكل يمضى فى فلكه بعيدا عن الآخر، والناس فى بلادنا يتخرجون فى الجامعات والمعاهد والأكاديميات ليصبحوا فى النهاية مجرد موظفين ينفق عليهم أمثال ولد خالى. وقد تبين لى خلال سنوات التحاقى بالتعليم العالى واحتكاكى بالقاهرة أم الأعاجيب أمثال ولد خالى «حسن أبو على»، أن أمثال ولد خالى هؤلاء هم دائما وجوه المجتمع الحقيقيين بل هم أصلابه أصحاب رأس ماله وعمائره السكنية ومحلاته التجارية الكبرى وأعضاء مجلس شعبه وتاجرو مخدراته. أمثال ولد خالى «حسن أبو على» هؤلاء هم الفائزون على الدوام، وليس يصيبنا من التعليم سوى النفقات والعناء الشديدين، ولا أظن أن أحدا يمارى فى أن مجتمعنا لا يطلب منك شروطا على الأطلاق لكى تصبح أحد اثريائه فى شهور قليلة، أو أحد ملوكه أو رؤسائه فى قفزة واحدة يصبح من حقك أن تتحدى كل شىء وتحصل على كل شىء وتشترى بنقودك بقوتك ما تشاء وتهوى.

لكل هذا فأنا أستمع ـ وأدون ـ كل حكاوى ولد خالى «حسن أبو على»، التى طقت فى مخه فجاة فطلع فى دماغه أن يمليها على كصفحات من بطولاته الخارقة. وقد أملاها على فى استمتاع شديد، ودونتها فى استمتاع أشد. ولم أضبطه متلبسا بالكذب فى كلمة واحدة، حتى لقد أعطانى درسا فى

الصفاء والتجرد والجرأة على الاعتراف والمكاشفة بما يشيب له الولدان. لقد أدلى بشهادته كاملة غير منقوصة لما راى أن الجميع فى هذه الأيام يهتمون بكتابة شهاداتهم، كل من هب ودب يتطوع بالادلاء بشهادته.. فاراد ولد خالى أن يلقنهم درسا فى نوع الشهادات التى يجب أن تكتب اليوم، فإذا هو يكشف عن الجانب الدقيق المخفى من حياتنا المتعتقة فيعترف بكل مدهش ومثير، وإذا هى شهادة جديرة بان يحملها ضمير الأمة كما قال.

وبعد فليس لى أى فضل سوى تسطير أماليه هذه على الورق، لعل من يهمهم معرفة جوهر الحقيقة ـ كما قال ـ أن يفتحوا أعينهم ذات يوم. فإذا كانوا قد ظلوا طول عمرهم يقرءون شهادات المثقفين، فلعله قد آن الأوان لأن يستمعوا إلى شهادات العامة من افواه المواطنين، أو كما قال «طبق الاصل».

الفاتحة

الله لا يعيدها من أيام. الفقر وحش ياولدى وأكل العيش مر، والبطن لا ترحم. وهى ليست بطنا واحدة، خذ عندك أمى، وأربع بنات كبار، وطفل ملامحه كنت أشاهدها الخالق الناطق على وجوه أعمامى الفقهاء المحترمين، وأتعجب: كيف يصير هؤلاء محترمين هكذا؟ وأبى على باب الله يعيش على ذراعه يشتغل يوما ويبطل عشرة، حتى ليمشى يعرض الخدمة على الناس يتطوع بالمساعدة دون أن يدعوه أحد، أحيانا دون لزوم. أنت وغيرك تتصور أن المسألة مجرد شهامة من رجل يبدو محترما غير أجير، فتكتفى برفع ذراعك فى الهواء بالشكر والتحية مثلما تشكر أعيان الناس بينما تعطيه ظهرك متكلا على الله. واقعتك سوداء لو فعلتها ربما مشى خلفك فى هدوء شديد ليجذبك من أى مكان فى متناول يده الغليظة الخشنة، ذراعك أو خناقك أو رقبتك نفسها لا يهم: تعال هنا.. حمار أنا يعنى أشتغل لله من غير أجر؟! حتى الحمار يعلفونه وينفقون عليه!..

الكل ياولدى كان يتقى شره، يتركونه يساعدهم راغبين. لم تكن المصادمات تحدث بينه وبين أحد الا أيام السوق، حيث ينخدع

فى شكله الغرباء، يرون فى وجهه صلاح أعمامى وطيبة قلوبهم ورجولتهم، بعدها هو وبخته، حسب نوع الناس الذين يرمى بجثته عليهم، مع أنه أزرق الناب، عليه رحمة الله كان يعرف الناس من أقفيتهم، ومنها يتوسم فيهم الخير أو كلاحة الوجه. العبد منا ليس معصوما من الخطأ، ويرحمه الله كان يضرب فى قلب السوق ينظر حواليه وعينه لائذة بكل شىء، يرى جماعة ينزلون أجولة الحبوب عن الركائب يعدون الفرش، يراهم فى حاجة حقيقية لمساعدته لكنه يعطيهم ظهره وينصرف، ليساعد بائع العجوة فى نصب خيمته واعداد موازينه وبعدها يقف يتلكأ فيفهم البائع هذه الإشارة يطبق يده على الواحد بأربعة أو القرش على سبيل الهدية أو الحسنة التى يسره أن يقبلها ذلك الرجل الطيب المحترم لعله يكون بركة، أما تجار الحبوب فانهم كانوا سيسخرونه فى تفريغ وتكييل وتحميل طول نهار السوق وفى النهاية لن يأخذ سوى القرشين!..

أتممت فى الشهر الفائت أربعة وخمسين حولا بالتمام والكمال ومازالت أيام كان يتركنى أشبط فى ذيله فأمضى معه يوم السوق كله، كان يعرق بحق، يصعب على، من فرش إلى فرش يحمل يعتق يفرغ يجر العربات يتعارك فى اليوم مائة عركة، فى كل عركة يضرب وينضرب حتى يقع مغشيا عليه وولد خالك يصرخ لله ما يغيثه من كثرة الخوف على أبى الذى أراه يموت أمام عينى فى اليوم الواحد عشرين ثلاثين مرة على الأقل! أتعجب فى كل عركة كيف كان يستطيع النهوض بعدها متجها إلى فرش آخر يبحث فيه

عن مساعدة يقدمها لأصحابه، إن لم تكن موجودة أختلقها، لربما فوجئت به يكنس أمام دكانك ويرش، ما يجعلك تنتبه إلى أنك بالفعل كنت محتاجا لمن يكنس لك المكان ويرشه ليصير نظيفا هكذا، أو تراه قد تسلل إلى فرشك وراح يرتب أجولته وموازينه من الفوضى التى أحدثتها معاينات الزبائن وفركشاتهم للبضائع، مما يجعلك تنتبه إلى أنك بالفعل كنت محتاجا لمن يقوم لك بهذه المهمة، ولربما فوجئت به واقفا أمامك ماثلا رهن الاشارة فى أن تكلفه بشىء أو تطلب منه طلبا أو تأمره بأمر، ومن هنا كانت تكثر خناقاته يا ولدى، وكان رأس ولد خالك الصغير أيامها لا يمكن أن يخطر له أن أبى هو الذى يسعى إلى العركة سعيا. كنت أستعيذ بالله ويدب الرعب فى كلما بدأ صوته يعلو فى الكلام وترتعش شفتاه وتبرق عيناه، أروح أقول لنفسى ياسابل الستر استر يارب، رمشة عين والأخرى تكون الخناقة قامت والضربة دوت على وجه أبى، تتبعها الشلاليت والبونيات وأبى يفلفص بين جمع من الناس يلتم عليه فجأة ليخلصه ولكن بمزيد من الضرب، بعدها يقف بعيدا ويأخذ فى الصياح والاحتجاج على ضربه وهو ابن الناس الطيبين واخوة له فقهاء مشهورون، فيتحرج الذين ضربوه، يبعثون له من يصالحه، يراضيه بقرش يزيد عما كان سيأخذه بدون عراك!..

ولد خالك لم يعد يخاف. فهمت أن أبى يفعل ذلك من أجل زيادة الرزق قرشا أو قرشين. فى يوم السوق لابد أن تطبخ كافة الدور، الدار التى لا يتصاعد منها الدخان ليلة السوق هى دار اليتامى، ولابد أن يوقد الكانون فى دارنا ويرسل دخانه ولهذا كان

أبى ـ بعد كل هذه البهدلة والضرب المميت ـ يبدأ فى الابتسام منذ انصرافه من أمام «سيبة» الجزار، حيث يكون قد تأكد من أن اللحم صار أخيرا فى يديه تنام اللفة الورقية الحمراء التخينة المبقعة بالدم على صدره وهو يركض مترنحا ذات اليمين وذات اليسار كالسكران النشوان يلقى السلام على الناس بكل ود، فيردون عليه بكل احترام للورقة النائمة على صدره يقولون: تفضل يا أبو عواد، فيقول: عشت عشت، وتزداد الابتسامة نورا على وجهه كلما اقترب من حارتنا، فاذا يبدأ فى دخول حارتنا يأخذ شكل الرجل المحترم يبدو بالفعل نسخة من وقار أعمامى الفقهاء فى مشيتهم لا فرق سوى الجبة والقفطان والعمامة والعصا. ولم أكن أعرف لماذا يفعل هذا فى هذه الحارة بالذات مع أننى أعرف أن أناسا كثيرين من أهل حارتنا هذه شاهدوه فى السوق وهو ينضرب بالصرمة القديمة، هم أيضا كانوا يردون عليه السلام بكل احترام قائلين: تفضل يا أبو عواد، فيقول: عشت، ويدلف إلى دارنا، من خلفه أنا، متفاخرا، محشو الجيوب بالعجوة والبرتقال واليوسفندى والفول السودانى. ينشرح وجه أمى وأخوتى من منظر الورقة. أمى تسمى بالله قبل أن تفتحها، تقلب فيها قائلة لابى وهى تشوح بيدها فى وجهه بحب: ان شاء الله ما اشتهيك، تذهب إلى الكانون المشتعل تكاد تزغرد من الفرح. أنسى فى الحال كل ما أصابنى من بكاء وصراخ ونكد، أوزع على اخواتى وأمى وأبى كل واحد بلحة عجوة وفص برتقال. يكون

ريقنا قد بدأ يجرى والفرح يعمنا كلما طلعت رائحة اللحم المسلوق من تحت غطاء الحلة مع الدخان..

خالك، يرحمه الله، اشتغل فى أشغال كثيرة. الشغلة الوحيدة التى كنا نحبها ونتمنى لو دامت هى شغلة الخفارة، حيث خفرنا ما كينة مياه كبيرة كانت لرجل من الأعيان طيب القلب مثل حالاتك وحالاتى، كان له ثلاثمائة فدان تسهر عليها ماكينة المياه ونحن وأبى نسهر عليها وعلى الأرض طول الليل. أقمنا دارا لنا بجوار الماكينة وأقمنا فيها، فبقيت دارنا تقطع المسافة بين البلدة والجبل، إلى الجبل كانت أقرب، وكل العصابات التى تختبىء فى مغارات داخل الجبل كانوا أصحاب والدى وكانوا يستريحون عندنا أثناء تسللهم من الجبل ليلا إلى البلد أو تسللهم من البلد إلى الجبل. «على السايح» نفسه، الذى هرب من السجن والقيد الحديدى فى يديه، كان يستريح عندنا، ولقد سحرنى هذا الرجل مثلما سحرنى الجبل، هو الوحيد الذى بهرنى بعد الجبل وأوقف شعر رأسى من الرعب والحب لهؤلاء الذين يدوخون البر كله يحتضنهم هذا الجبل المهيب المخيف الملىء بالمغارات..

أتعرفون كيف هرب «على السايح»؟ تراك أنت وجيلك لم تسمع به. وهل رأيتم أنتم شيئا؟ انكم جيل الفقر والحروب وعسكر الاحتلال واحتلال العسكر، فمن أين تجيئكم المرجلة عدم المؤاخذة؟ من السمن الهولندى والقمح الأمريكى المدفوع فيه شرفكم؟ أم من الفراخ الفاسدة ولحوم الكلاب المفرومة التى يوردها عبد الحى وعبد الميت؟! أم من الماء العكر المختلط بماء المجارى والهواء المختلط

بعادم المكن والمواقد؟! عليه العوض ومنه العوض فيكم ياولدى! فى هذه البلاد شىء كبير غلط لا أحد يدرى ما هو لكننى أقول انه ندرة الرجال!.

«على السايح» كان محكوما عليه فى أربع تأبيدات كلها اعتداء على الحكومة وقتل أعيان من رجالها، مع أن الحكومة هى التى كانت تبدأ دائما بالعدوان، هل هناك من يتعدى على الحكومة من الباب للطاق؟ .الناس تعتدى على الناس، وهيهات أن تجىء الحكومة فى الوقت المناسب، الميت يبقى فى مكانه ثلاثة أيام ربما عشرة فى انتظار تشريف وكيل النيابة إلى أن تتعفن جثته ولايستطيع مخلوق فى أن يقترب منها. وحتى لو جاءت النيابة فماذا ستفعل؟ محاضر وأقوال؟ طبيب شرعى يبيع التقارير بتسعيرة كبيرة ؟! وحقوق تضيعها المحاكم بين قضاة يعوجون الطربوش على ناحية ويحكمون بأربع وعشر ومؤبد وهم لا يعرفون أصل الحكاية من فصلها ولا ظالم من مظلوم ؟ ! ومحامون متكلمون يختلقون الأوراق ويولدون الكلام كلاما ومخارج وأوهاما تصفى دم الغلابة ؟! ..

ياولدى الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحد حقوقه ولا تقتص من أحد لصالح أحد! أنها لا تدخل إلا لفض المعارك والفتك بالجميع. ولهذا تعودنا فى الصعيد أن نجنب الحكومة، فما تبدأ معركة إلا وتكون أول خطوة فيها هى قطع أسلاك التليفون حتى لا تأخذ الحكومة علما، لكى تتسع الفرصة

لان يأخذ الناس حقوقهم بأيديهم يابوى، يقتصون لأنفسهم بأنفسهم يابوى، أمال يابوى ! أتظنون أنفسكم رجالا ؟! ..

«على السايح» يرحمه الله كان يتعارك عراكاً بريئا مع نفر من عائلته: ازدادت المعركة اشتعالا بعض الشىء، تطوع أبناء الحلال فسافروا إلى بلدة مجاورة لبلدتنا وأبلغوا الحكومة من تليفون عمدتها، فهبطت علينا العسكر والهجانة من كل مكان واشتغل الضرب فينا عمال على بطال. دخلوا دورنا يابوى كما كان يفعل الفرنساوية والمغول الذين يحكون عنهم فى الراديو والتليفزيون ساعات. صاروا يمزقون الثياب عن النساء بحجة أنهن ربما يكن رجالا من الهاربين متنكرين، ويفتحون حواصل المعيشة فيدلقون السمن والعسل واللبن على الأرض يدهسونه بالأحذية الميرى، وبأقدام الخيل وحوافر الجمال وعجلات البوكس فورد يدهسون بطون الحوامل والأطفال والعجائز. فمن يرى هذا يابوى ولا يغلى دمه؟!..

كنت طفلا صغيرا أيامها وكان ذلك حوالى سنة ألف وتسعماية وخمسين أو قبلها بسنوات قليلة، ولازلت حتى هذه اللحظة أسمع الصراخ والصويت الساكن فى أذنى من يومها. بعينى هاتين - قادر أن يخرسنى لو كذبت - شاهدت اندفاع عسكر الحكومة بالمدافع الرشاشة يحصدون كل من فى طريقهم، ضرب عميانى. الدار المجاورة لدار «على السايح» ليس لها دعوى بأى شىء، لكن العسكر أخذوا يصوبون نحوها مدافعهم

ويضربون. خرج لهم من شباكيها فتى وفتاة من عائلة «الجناينة»، الفتى اسمه «جنة» وعمره حوالى سبعة عشر ربيعا، والفتاة اسمها «جنينة» وعمرها حوالى خمسة وعشرين عاما. أخذ كل منهما يدافع عن داره وأهله مطلقا رصاص المدفع الرشاش على العسكر والهجانة فقتلوا منهم جملة، وكلما وقع منهم واحد زغردت الأم فى الداخل، إلى أن اندفعت رصاصة من مدفع أحد الهجانة فى رأس الفتى «جنة»، كانت عنيفة حتى نترته من الشباك وألقت به خارج الدار فى الارض، فما كان من أخته «جنينة» الا نزلت من الشباك ولفت من الحوش لتفتح باب الشارع كى تجىء بجثة أخيها. وكان العسكرى الهجان الذى ضرب أخاها قد نزل عن جمله وجاء نحو الفتى ليأخذ منه مدفعه الذى كان لا يزال يحتضنه، فعاجلته الفتاة «جنينة» مفرغة فيه كل حشو خزينة مدفعها، وجرجرته حتى عتبة الدار، وبحد الفأس قطعت رأسه وذراعيه وقدميه وصارت تفتت لحمه كأنه الردم!!..

كل هذا و«على السايح» طائح فى الهجانة والعسكر بفرسه ومدفعه الرشاش وسيفه وخنجره ونبوته حتى قتل منهم جملة وأصاب مجملهم اصابات خطيرة، وحين فوجئنا بمجىء الجيش المصرى بعرباته المصفحة ومدافعه وخيوله ليخمد المعركة وجدها قد أخمدت تماما ولم يبق منها سوى «على السايح» وحده، الذى صعب عليه أن يهرب والجبل على بعد رمحتين بالفرس الاشهب وجثث أهله وجيرانه وأصهاره مرمية على الارض فى كل ناحية..

تسلمته الحكومة وحده فخرج مكبلا بالحديد فى يديه وقدميه ولكن تشيعه الزغاريد! التى طغت على اصوات الثكالى وجعير اليتامى!..

رحلوه إلى النيابة ثم محكمة جنايات أسيوط فحكمت عليه بالتأبيدة الرابعة، فقط لأن محاميه «عبد الفتاح باشا الطويل» أثبت أنه عند اشتعال المعركة كان هو مقبلاً من عند أخواله فى نجع حمادى مجاور لبلدة «أولاد إلياس» وأنه وصل بعد انتهاء المعركة ولهذا لم يشارك فيها ولوشارك لكان أمامه متسع للهرب كما أنه ليس لدى الحكومة شهود لا من رجالها ولا من أهل البلدة لأن الجميع كانوا قد ماتوا فى المعركة وعددهم جميعا حوالى مائةوستين فردا من الطرفين حكومة وأهالى!..

عند انتقال «على السايح» من المحكمة إلى السجن تكفل بنقله أربعة عساكر أشداء وضعوه فى «البوكس فورد» مقيدا بالحديد من يديه وقدميه. وفيما «البوكس فورد» يمتطى الطريق الزراعى أشار «على السايح» نحو نجع أخواله وهمس فى آذانهم بجدية وصدق كبيرين ـ (الله يرحمه كان مهيبا) ـ قائلا أنه يدفن فى هذه الناحية ألفى جنيه فى الأرض، وهو الآن ذاهب إلى السجن المؤبد وخسارة طبعا أن تأكل الأرض هذا المبلغ، حرام، ليكن لهم ألف وله ألف يصرفه فى سجنه اذا هم مروا به على هذا المكان حيث يشير لهم من قعدته هذه على موضع النقود فيفتحون بأنفسهم ويستخرجونها. صنف عسكر الشرطة أدنياء وأن تظاهروا بالعفة

الشـــديدة بل هم كـــذلك لأنهم كـــذلك.. وهكذا بـدا عليـــهم أنهم استحسنوا الفكرة ووافقوا عليهـا، فألف جنيه على أربعتهم ليست مبلغـا بسيطا بالنسـبة للقحط الذى يعـيش فيه خـدم الميرى ومن يتـمرغـون فى ترابه. أعلنوا مـوافـقتـهم بجسـارة خاصـة أنهم مسلحـون وهو أعزل مقيـد فضلا عن أنه بعيـد عن بلده وأعوانه. وبعـد أن انحرف «البـوكس فورد» عن الطريق والتـحم بالمنعطف الواصل إلى الغنيمة همس لهم «عـلى السايح» بأن منظر «البوكس فورد» سـوف يلفت النظر ويثير الشـبهة فـيلتم الناس ويعطلونهم عن كشف الدفينة وربما ادعى البعض أنه صاحـبها! واقترح عليهم أن يركنوا «البـوكس فـورد» فى دروة آمنـة فى سـفح الطريق ثم يركبـوا سيـارة أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفـينة ثم تعود بهم إلى مركن أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفينة ثم تعود بهم إلى مركن «البوكس فورد» بعد انتهاء مهمتهم..

ركب هو بجـوار السائق ليرشـده على الطريق. سـائق الاجرة عرفه فى الحال وسلم عليه لكنه قفل مـلامح وجهه أثر غمزة قوية من أصابع «علـى السايح». المقصـود، ظلت السيـارة الاجرة ترمح بين الحقول فى طرق ضيقة حتى توقفت أمام دار تغطس ـ وحيدة ـ وسط قطيع من النخيل والجزورين والكافـور وتحدها من جميع الجهـات مساحـات شاسـعة من الاراضى الزراعيـة التى هى ملك أخوال «على السـايح» وهذه دارهم. خرج منهـا ثلاث رجال يهـتز من وقع خطوهم المهـيب جبيـن الارض لتقول هزاته لـهؤلاء الذين نزلوا من السـيارة الأجـرة أن اخضـعـوا فأنتم أمـام أسيـاد هذه

الأرض، لكل منهم شارب يؤكد لك أن العـيب كل العيب يكون عليه لو لم يصدق صـاحبه فى كلامـه، وعصا من الشـوم تؤكد لك أن الويل ملاقيك لا مـحالة أن أبديت لجاجة أو غبـاوة، ووجه بشوش باسم عن سعة يؤكد لك أنك بالكرم الغـزير موعود، وأنك، بحسن التصرف واللباقة ـ من ها هنا ـ مولود!..

وهكذا فوجئ العسكر الأربعة أنهم قد أحيطوا بالكرم والاحترام على أكمل وجه. غـداء سريع شهى أعقبه شاى ثقـيل. وقبل الغداء بقليل اسـتأذن «على السـايح» من أخـواله فى فأس فـجىء له به فـأصطحب اثنين من العسـكر ومضى بهـما خلف الدار مـسافـة طويلة حـيث توقف عند بقـعة مـعينة طلب الـفحت فـيهـا ففـحت العسكريان حـتى عثـرا على الدفينة بالفعل مـلفوفة فى قـماط من جلد حـذاء قديم، فلمـا عاد ورأى العـسكريان الآخران البـشاشـة والرضـا فى عينى زمـيليهما شملهم الاطمـئنان وجلسوا للغداء فى قليل من التـردد والترقب، لكن كـوبة الشاى الـثقيلة تكفلـت بعدل أدمغتهم على الصهللة الزاعقة والانشراح المجلجل بروقان الأفيون المزروع خلفـهم مبـاشرة على مـساحـات لا يحدها البـصر، لهـذا سمحوا لعلى السايح ـ عن أريحية وطيب خاطر ـ أن يدخل ليسلم على زوجة خاله خلف باب الدار مباشرة..

زوجة خاله كانت فى انتظاره داخل حوش الدار الواسع البعيد. بالفأس الصغـيرة كسرت أقفـال قيوده، سلمتـه الحصـان والمدفع الرشاش وصـاحت فيـه: انطلق. فاندفع من البـاب الخلفى لا ينظر

خلفه قاصداً الجبل، ولو رفع العسكر رءوسهم وتلفتوا حولهم لرأوا فارسا متكورا فوق حصان يشق الريح مندفعا نحو ركن بعيد من السماء، لكن العسكر لم يرفعوا رءوسهم لأن مخدر الافيون القوى الذى شربوه مذابا فى الشاى بكمية كبيرة كسر رقابهم فارتمت رءوسهم على صدورهم كرءوس العصافير الذبيحة فلم يشعروا بأنفسهم الا وسائق الأجرة يجر جثثهم واحدا وراء الآخر عند «البوكس فورد» ويتركهم واقفين متهدلين يتطوحون، لينطلق هو إلى سبيله مثيرا سحب الغبار خلفه..

ان حلفت لك بالله العظيم أننى جلست مع «على السايح» هذا تقول عنى كذابا. الوكيل ربنا، لقد ربت بيديه على رأسى وكتفى فيما هو يستريح فى دارنا مع رجاله. كانت أمى تخبز عيشا ليكفينا جمعة بحالها فيأكل رجاله الخبزة كلها وتضطر أمى للخبيز ثانية من صبيحة ربنا وهى فى غاية الانبساط لأن الذى أكل خبزتها هو «على السايح» ورجاله. غير أن سعادة أمى كانت تجىء من ناحية أخرى، إذا كانت تعرف أن «على السايح» يتلكأ فى الطريق حتى يغمق ستر الليل ليذهب إلى داره كى يجامع زوجته ويستحم ويغير ثيابه ليعود إلى الجبل، وكانت تعرف أن رجاله البالغ عددهم عشرين والذين يأكل بعضهم خبزتها الآن سوف يحوطونه طول الطريق أن هناك مثلهم أكثر منهم عددا يتراشقون بالارض فى طول الطريق من الجبل إلى الدار يؤمنون له الطريق يصنعون من أنفسهم ستارا فوق ستار الليل ولا

يبدءون فى مغادرة مواقعهم الا بعد أن يروه مارا عليهم فى طريق العودة!..

العمدة كان ابن عم «على السايح» وكان ينوب عنه فى رعاية مصالحه فى غيبته. فى يوم من الايام ذهب أولاد «على السايح» إلى عمهم العمده يطلبون قمحا لغذائهم، فقال لهم فى جفاء:

ـ هل خلفتكم ونسيتكم؟ روحوا لأبيكم!

ذهب الأولاد إلى أبيهم فى الجبل فقالوا له نص الكلام، فحمل «على» رشاشه ونزل من الجبل إلى دار ابن عمه فرآه واقفا فاسرع العمدة باغلاق الباب ولكن الضرب استمر فاذا بقفل الباب ينخلع من .. مكانه ويدخل فى صدر العمدة، مع ذلك تمكن العمدة من شد التليفون للمديرية، فلحق به العسكر وهو خارج من البلدة فى طريق الجبل بين رهط من أعوانه، هجموا عليه فراح يبادلهم اطلاق الرصاص حتى كومهم جميعا ماعدا اثنين حاصراه من الخلف وصوبا عليه حتى جعلا جسده كالغربال!..

بموته تسوح أبى، خاف من الخفارة، أصيب بالتعنية والرطوبة، جاءه والعياذ بالله «فكر» فى رأسه جفف عوده وكسر شوكته، فاشتغل مع عمال الكهرباء فى معسكر ستة وعشرين الانجليزى، فلم يمض حول واحد حتى وقع عليه المقص الكبير الذى يركبون من فوقه المواسير، فمات فى الحال. مات يابوى وتركنا ياحسرة لا وراءنا ولا قدامنا.

الله واحد

أمى هى المبتدأ والخبر

شهـور طويلة ونحن جـوعى، أى والله يابوى ان قلت لك ثلاثة شهـور تقول كـذابا. الحق أنها كـانت ستـة، بمائتى ليلة ويوم إلا عشرين، الذى نبيت فيه نصبح فيه. كل فتلة خيط كل قطعة خشب كل شىء فى حـوزتنا يصلح للبـيع بعناه بغـدوة بعـشوة نحـزم البطون بعدها أياما وليالى..

تقول أعمامى الفقهاء؟ لقد فعلوا الواجب طبعا كتر خيرهم، أكلنا على حسابهم أياما لكـنهم هم أنفسهم كانوا محتاجـين للمساعدة. كلنا على باب الله العبـد وسيده معـا، لم يكن بقى منهم سوى عم واحـد ضرير، بـعد أن كـانت صـينيـة الشاى والقـهـوة تمر على ضيوفه أكثر من مرة أصـبح لا يقدم لهم حتى جرعة ماء، بل كان يتركهم يجلسـون كيفما اتفق، بل كان ينتظر منهم غـمزة يد دافئة بالحـسنة عند انـصرافـهم وكـان يـوحى لهم بحـركـات يديه أن يفعـلوها فاذا فـعلوها بحسن نيـة غضب واهتـاج هياجـا عاصـفا ينتهى بأن يعطيـهم درسا فى احترام العلم ومن يحـملونه! فالعلم

رسالة سـماوية وليس هو الا مكلفا بهـا والاجر على الله يقبـضـه منه سـبحـانه عاجـلا أو آجلا وكـلما تأجل الأجـر عند الله زادت قيمته!! نفس الكلام الذى كان يقـوله للعامة أيام كان الخير يجرى فى يديه!..

المقصود، تكومنا فى الدار لا يعرف بلوانا إلا ذو الخيمة الزرقاء التى تظلل كل عـبـاده. امرأة خـالك ياولدى قلبـهـا سخن دائمـا، ودماغهـا ناشف لا يستطيع الزمن كسره ولو كـان حديدا.. تذهب تساعد بعض الجـارات فى بعض الأشغال، فى الخبيز لقـاء بضعة أرغفـة، فى الطحين لقـاء حفنة من الدقيق، فى الذبـح والطبخ لقاء طبق من الطعـام، كله ينـفع، ولكن لوقـتـه فحـسب، فـمـا العـمل يابوى؟.. البنات عنـدنا لا تشـتغل، نمـوت جوعـا ولا نعـرضـهن للبهدلة ساعة واحدة عند الناس. أخى الوحيد طفل رضيع ياكبدى. الدور والبـاقى كله على أنا، هذا ما كـنت أقوله لنفـسـى وأنا أتكور على نفسى منحشرا فى القاعة بين اخوتى..

أثنا عشر عاما كان عمـرى وقتها، طويلا كنت كما ترى والبس فـوق رأسى لبدة مـقصـوعة للـوراء وأبدو رجلا لا ينقـصنى من صفـات الرجال شئ لكى اشتـغل مثلهم وأشقى مـثلهم، ولكن فيم أشقـى وأتعب؟ لقد كـان أبى رحمـه الله يملك القوة ويلف يبـحث عمن يستـأجرها لقاء سيجارة. ها أنذا ـ أيضـا ـ أملك الشباب ولا أعرف كـيف أملأ بطنى وحدها فمن يـاترى يملأ هذه البطون التى ضمرت فينا وسحبت البصر والضوء من عيوننا؟!..

امرأة خالك تدفعنى فى كـتفى قائلة فى غيظ: انزاح، وليس من مكان انزاح اليه، لكننى أعرف سر غضبها فأقول: حاضر، ثم أهب واقفا، فـأراها تشوح فى وجهى قائلة: ألا تتـحرك ياولد؟ ألا تفعل ما يفعله الرجال؟! ماتفيدنا حشرتك الآن بيننا؟! يا أخى اسرح على باب الله فكل الرجـال يسرحون كـل يوم ويعودون بخيـر كثـير! اسمع ياولد! أرض النصارى قريبة من هنا وفيها زرع كثير! اذهب إليها وهات منها شيئا ناكله! إنها مزروعة قمحا! خذ القفة واملأها عن آخرها بالسبلات وتعـال! واحذر أن يراك أحد وأنت تفعل هذا! لا يهم أن يراك وأنت مقـبل بها المهم ألا يراك وأنت تسـرق! فاتكل على الله ياجدع! اتكل على الله!».

هل اغشك؟ اتكلت على الله، حملت القفـة وخرجت، قصدت بلدة «أبو حجـر» القريبـة من بلدتنا قرب الأنف من الفم، كل أهـلها من النصارى زرعهم واسع، لا تحده حدود، يسـتأجر الأنفار للزراعة ولديهم ماكـينات المياه تروى. الخـفراء معـدودون لا يستطيـعون حصـر هذه المساحات الشاسـعة فى عين حـتى ولو كانت بنظارة معظمة. اخترت منطقة مـقطوعة منزوية عن الطريق، أخذت أحصد السبلات وأعبئ القـفة حتى ملأتها لتمـها، خرمت عائدا إلى دارنا، أفرغت القفة فصنعت كومة كبيـرة شكلها مفرح. قالت أمى مشيرة إلى القفـة املأها مرة أخـرى. قلت: حاضر ياأم، وانطلقت مـتأبطا القفة، ومن منطقة أخرى ملأتها وعـدت، فلما أفرغتها استدرت من الفرح عـائدا لأملأ القـفة مرة ثالثـة. بعد المرة الرابعـة صار لدينا حصيـدا يصلح طحينا لخبز عائلـة، مع ذلك قالت أمى: اذهب مرة

خامسة. وكنت قد تعبت، فقلت لها: كفى ياأم. فجعلت تتحايل على وتُقبلنى وتستحلفنى برحمة أبى وأنا أقول من الضيق: كفى ياأم. لكن الذى طلع عليها هو مرة خامسة. فقلت: أمرى لله، وحملت القفة وخرجت. الدار المجاورة لنا مباشرة لدى أهلها كلبة شرسة مخيفة ولذا يغلقون عليها باب الدار بأستمرار ولا أحد يستطيع دخول الدار إلا إن امسك أحد أهلها بالكلبة من جنزيرها. وضعتنى الخطوة الثانية أمام بيت الجيران الذى كان مفتوح الباب فى هذه اللحظة. ما أدرى الا والكلبة قد هجمت على بالفعل وأطبقت أسنانها على يدى اليسرى وأخذت تجرجرنى وأنا أصرخ حتى خلصونى منها بالعافية وخرجت أمى تلطم وجهها قائلة: أنا السبب! أنا السبب! آه من فراغة العين!.. ولم تقل أمى أن السبب هو الحرام الذى شجعتنى اليوم على ارتكابه!..

رقدت بهذه العضة شهرين كاملين يابوى لا حقنة ولا برشامة ولا أى شىء سوى البصلة فوقها حتى طابت ولكن آثارها لاتزال فى يدى مخلفة عاهة مستديمة..

طاب الجرح لكن جرحا فى داخل النفس لم يطب، خرجت إلى الحقول من جديد أطلب الرزق فى غلس الظلام وألقى به فى حجر أمى أقول لها: كلى ياأم أنت وأخوتى فالمهم عندى رضاءك ياأم. لكن أمى بدأت تخاف على، وأنا أيضا بدأت أخاف على نفسى صحيح أن ربك يكرمنى ويعيدنى إلى أمى واخوتى سالما ولكن ما كل مرة تسلم الجرة على رأى عمى الفقيه الضرير..

فى يوم كنت أرتب لسرقة مخزن غلال فى داير الناحية بجواره مندرة حولها صاحبها لقعدة تبيع الشاى والسكر والدخان والحلاوة الطحينية والخيط والابر، يجلس فيها الرجال يشتركون فى زردة شاى ثقيلة، الواحد بقرش تعريفة، لكن لا يجلس فى هذه القعدة يابوى الا من لديه قرش تعريفة، القرش لا يوجد إلا فى حنك سبع ممن عندهم أراض أو من قطاع الطرق..

عيل مثل حالاتى لو جلس معهم يخدمهم طول القعدة اذا نابته شفطة شاى من الدور الثالث تبقى بركة. هدفى لم يكن شفطة الشاى هذه. ولا قعدة الرجال، أنما كنت أتسقط أخبار المخزن من صاحبه الذى يجلس فى هذه القعدة على الدوام، كنت أريد أن أعرف أن كان نقبى سيجىء على شونة تبن أم بضاعة ثمينة يمكن بيعها أو أكلها، ولقد عرفت أن فى المخزن الكثير يابوى وأننى سآكل الحلوى والشهد لو وفقنى الله. والمسألة بسيطة، فهذه القعدة جزء من مندرة بقطوع مبنى، وبقية المندرة هى المخزن، وبينه وبين القعدة باب خشبى لو دقرت فيه كتفى دقرة واحدة لانفتح، حينئذ أدخل فأحمل تليسا من القمح أو البرسيم، التليس كما تعرف زكيبة مصنوعة من صوف الماعز تسع ثمانى كيلات، وكل الناس عندها تلاليس، وليس يعرف أحد تليسه من تليس الآخر، سأحمله وأخرج من باب هذه القاعة المطلة على الشارع بعد فتحه من الداخل حيث أننى لو نزعت الشناكل الداخلية لا تسعت الفجوة بين لسان القفل وبيته فى ضلفة الباب، فينفتح الباب، مهمتى إذن هى أن أبقى جالسا هكذا حتى نهاية السهرة وأتسلل

قبل الاغلاق لانام بين الاجولة فى ظل التلاليس داخل المخزن، فيغلقون الباب على وينصرفون، وقبل أذان الفجر بقليل أفعل فعلتى، ومن يدرى؟ ربما تمكنت من العودة إلى المخزن مرتين أوثلاثا قبل أن ينتبه أحد لأى شئ!..

تذكرت يابوى أن الرجل صاحب المخزن مسيحى، وكل مسيحى فى بلاد الصعيد لابد له من «بدوى» يحميه، حتى لو كان المسيحى رجلا أبهة من ذوى الأملاك الواسعة و «البدوى» جربوع شحاذ حافى القدمين. طلعت على الدنيا وأنا أرى هذا النظام فى كل بلد من بلادنا، وكنت أحلم أن أكون ذات يوم «بدويا» لواحد من المسيحيين الأغنياء، فهو العمل الوحيد الذى ليس عليك أن تتعلمه يكفى أن تكون ولدا بلطجيا قتال قتلى ولك سمعة واسعة فى السفالة وقلة الأدب أو فى الشهامة والجدعنه والرجولة، ففى الحالتين ستجد من يسعى إليك لتكون بدويه يطعمك ويكسيك ويعطيك مصروف يد وجعلا معينا من المحاصيل، وليس المطلوب منك أن تفعل يابوى، بكفى أن يعرف الناس أنك بدوى فلان الفلانى لكى يتجنبوه ويتركوه فى حالة، أو يكون المعتدون أقوى منك فيفعلوا ما يشاءون تحديا لك وللمسيحى الذى يتحامى بك!. المسيحيون عضمة زرقاء يابوى فبهذه الطريقة امتنعت خناقاتهم مع الناس المسلمين من أهالى البلد! الخناقات تحدث بسببهم فحسب ولكن بين المسلمين وبعضهم فحينما تكون أنت بدويا لأحد المسيحيين وأجىء أنا فاسرق داره أو زرعه أو ماشيته أو أتعرض

له فى الطريق بأى سوء فإن هذا لن يخلصك بالطبع وسوف تشعر أن العدوان موجه إليك وحدك ولسوف تنتقم منى شر انتقام ما فى ذلك شك خصوصا عندنا فى الصعيد!..

دورت فى دماغى فعرفت أن «بدوى» هذا الرجل صاحب المخزن هو أغرب رجل فى «كوم سعيد» بل فى الغنايم كلها: عم «عسران زهران» الذى لا شغلة له ولا مشغلة هو فى طول عرق الخشب يابوى، وفى تخن تليس ملآن، يقول الكبار والعجائز عنه أن عدد قتلاه فى عدد شعر رأسه الغزير المهوش تحت تلفيعة جرباء حيث لا لبدة ولا طاقية تستطيع أن تلمه تحتها، غير أنه إهتدى فى أواخر أيامه منذ أن اختاره المعلم «ميخائيل بطرس» بدويا له، اذ بسطه وخصص له جلبابين فى العام واحدة للصيف وأخرى للشتاء كما خصص له دخان سجائر يشربه وتلاليس قمح وذرة يأكلها هو وأمه وشقيقته العاجزة. شغلته طول النهار أن يجلس تحت قرص الشمس فيغلى ثيابه من القمل والبق والبراغيث المختبئة فى خياطة الثياب ورقعها. عم «عسران زهران» هو تسلية كل عيال البلدة، يجيئون له من أقصاها إلى أقصاها ليتفرجوا على.. أيده!!

أى نعم يابوى، فقد كان لعم «عسران زهران» أير عجيب مبروم كنخلة صغيرة وكان عم «عسران» يضطر للمشى مفرشحا يظل عم «عسران زهران» مرميا على الارض وأيره مرمى بجواره طول النهار عاطلين، ذلك أن عم «عسران زهران» لم يتزوج قط،

لأن فتاة من فتيات البلدة لم ترض به يا بوى. جرب حظه فى بلاد أخرى، لكن دخلته على الناس فى دورهم على هذا المنظر كانت تثير فزع الرجال وتذهب عقول السيدات، ليس بمعقول أن يرضى به رجل زوجا لابنته، فخير للرجال أن يظل هذا الأير العجيب خبرا يتناقله الناس من أن يكون حقيقة قريبة منه يمكن لحريمه رؤيته فى أى لحظة، أن أى رجل يابوى لابد أن يخجل من أيره اذا رأى اير عم «عسران زهران» ولهذا طارده الرجال فى كل زيجة حاولها حتى عقدوا نفسيته، فيربت عليه بحنان شديد قائلا: «معلهش لك رب يسمى الكريم!»، وتبدو الدموع فى عينيه حقيقة تكاد تطفر!.. أى والله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكذب!.

كنا نتذكر يابوى أن نصف قتلاه من النساء فوجىء الناس بجثثهن مرمية على الطرقات وفى الحقول عاريات ممزقات، فنرتعد ونكاد نقع من طولنا. نتذكر أيضا أن عم «عسران زهران» اشتغل فى كامب الانجليز سنوات طويلة بأيره، لم يكن يعمل أى عمل، إنما عليه أن يجلس فى مكان ما فى الكامب معريا ساقيه ليظهر ايره منحمصا، وكانوا ـ يسألونه اسئلة كثيرة ويجاوب عليها ويأخذ نقودا فى نهاية الأمر. تلك كانت أحسن أيامه أشدها رواجا ولايزال الناس يتكلمون عنها على أية حال فإن عم «عسران زهران» كان دائما ينهى كلامه بأنه أحسن من كافح الانجليز وحاربهم ونكل بهم إذ هو لم يقتلهم فحسب بل هزأ برجولتهم.

عم «عسران زهران» يابوى ليس له فى الخناق ولا العراك رغم ضخامة جسمه، كل الناس فى الغنايم قبلى يعرف أن عم «عسران زهران» أقوى ما فيه ايره رغم أنه لم يستفد منه فى الناحية التى خلق لها أصلا. والمعلم «ميخائيل بطرس» حين اختاره بدويا له كان ذلك لخوفه من ايره: أن يفكر عم «عسران» فى استخدامه ضده خاصة أن المعلم ميخائيل واسع الذرية معظمها فتيات يقلن لستنا «مريم» العذراء قومى لنقعد مطرحك ليس المعلم «ميخائيل بطرس» وحده من كان يعمل حسابا لاير عم «عسران زهران»، إنما البلدة كلها والبلاد المجاورة كانت تخشاه، ليس لعدم ثقتهم جميعا فى حريمهم بل لعدم ثقتهم فى أنفسهم، فلو أراد عم «عسران زهران» أن يكيدهم مر الكيد فانه ـ فقط ـ يمشى مشوارا فى شارع داير الناحية وما يتفرع عنها من حارات، يمشى فتراه وهو مقبل حيث يغوص الهواء بجلبابه بين ساقية مجسداً ساقه الثالثه المبتوره عند الركبتين فيصيبك بالجنون ان كنت شابا حرا، سوف يكون أول شعور يدهمك لحظتها أن هذا الفحل الجاموس جاء يتحدى أنوثة حريمكم وذكورة رجالكم على السواء !..

صدقنى يابوى أن بعضهم فكر فى قتله، لكن أغلبية كبيرة اقنعت الجميع أن قتله خسارة! فهو شىء يستحق الفرجة ولكن فى مكان منعزل.

صراحة يابوى كنت معجبا بهذا العم «عسران زهران» اعجابا شديدا. كان ثانى رجل بعد «على السايح» يخلب لبى ويستولى

على كل جوارحي وخيالى، الأول لأنه قاوم الحكومة وقتلها، والثانى لأنه قاوم الانجليز بايره. لكن لما تذكرت أنه البدوى الخاص بالمعلم «ميخائيل بطرس» صاحب هذا المخزن خفت منه، إذ هو لابد أن يعرف يابوى، لأن «عسران زهران» يسهر فى قعدته بين المخزن ودارنا، يعنى لابد أن أمر عليه من هنا ومن هاهنا ذاهبا أو آيبا، وهو رجل عكروت وضرس، لو كان فى عز الشخير ومر بجواره من يحمل شيئا أى شىء فإنه يصحو فى الحال وينظر فيه، ولابد أن يعرف من هو وما الذى يحمله ومن أى مكان هو قادم وإلى أى مكان هو ذاهب، وان كان غريبا عرفه فى التو واستوقفه بشخطة واحدة. ويسألون عم «عسران زهران» كيف يتاتى له الصحو المفاجىء عند مرور من يحمل شيئا ؟! فإذا هو يقول: أعرفه من وقع خطواته على الأرض! فمن يحمل شيئا تكون خطواته أثقل ودبها على الأرض أشد وقعا وصوتها أكثر رنينا فى أذنى التى أضعها فوق الأرض بدون مخدة! .. فكيف أنجو من هذا الرجل يا بوى إذا وفقنى الله وسرقت المخزن ؟! هل أقتله وهو نائم ؟! لا أريد بل لا أستطيع!..

دماغى أخذ يذهب ويجىء يا بوى، وإذا برجل قادم من عند دوار العمدة يقول أنه سمع الراديو يقول أن الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان تنازل عن العرش لولى عهده «أحمد فؤاد» الطفل وأن الجيش المصرى حكم عليه بمغادرة البلاد قبل الساعة السادسة وأن هذا الكلام فات عليه أكثر من جمعة ونحن لا نعرف يابوى.

بقينا أياما طويلة نجرى على الراديو فلا نسمع إلا غنوة : «ع الدوار ع الدوار .. راديو بلدنا فيه أخبار»..

وأخيرا وصلت الأخبار يابوى، عرفتها ممن يفهمون كلام الراديو. أخبار مفرحة يابوى وفيها أشياء لا يصدقها المرء، حيث أن البلد انقلبت جمهورية وجاء العصر الذى ينفع الفقراء، لم يعد هناك باشا ولا بك ولا اقطاع، فلما سألتهم : «اقطاع يعنى ايه يابلدينا؟» قالوا لى : يعنى أرض النصارى وأمثالهم من المسلمين ولسوف توزع على الفلاحين الذين يزرعونها !! وقالوا كذلك أن التعليم صار بالمجان وأن كل الناس مثل بعضهم أمام مراكز البوليس والمحاكم والحكومة!! قلت يا أسيادنا قولوا كلاما غير هذا يصدقه المرء ! قالوا : كنت بهيما وأذن الله أن تصبح آدميا فأفهم يابجم. القصد أنى بقيت شهورا طويلة لا أصدق هذا ، فى كل يوم أزداد جرأة فى الهجوم على الحقول وزرائب المواشى وقطعان الغنم فلا أجد من يردنى، بل كان يصادفنى من يرانى عائدا بالسرقة مضطرب الخطوات مبعثر النظر فلا يهتم بى. قد ينظر لى نظرة ذات معنى ثم يحول وجهه عنى ويمضى فى حال سبيله..

وسمعت أن ملاك الأراضى يوزعون أراضيهم على أولادهم وأقاربهم كتابة على الورقة فحسب حتى لا يزيد ما يملكه الفرد عن مائة فدان. قلت : حلو. ثم لاحظت أن أولاد الأغنياء والباشوات والبكوات انكسرت شوكتهم والتوت وجوههم وهجر الابتسام شفاههم فقلت: يظهر أن كلام الناس صحيح وأن الله قد أذن بقيام العدل فى هذه الدنيا على أيدى هؤلاء الذين يسمونهم بالثورة.

إلى أن جاء يوم رأيت فيه بعض الخدم يصمون آذانهم عن نداءات أسيادهم! وبعض الفلاحين يتبجحون فى مواليهم! وبعض الغلابة يرفعون وجوههم وربما السنتهم فى وجه عسكرى البوليس بعد أن كانوا يلمعون له أزرار سترته! وبعض التلاميذ الفقراء يتعاركون بجرأة مع أولاد الذوات ويشتمونهم ببساطة!.. فقلت فى نفسى: الأمر اذن صحيح ياولد. ومن يومها شعرت أن الدنيا قد اتسعت أمامى والدار التى نسكنها بغير سقف صارت قصرا. صرت أفعل مثلما يفعل الخلق من أمثالى، اتباهى باننى فلاح ابن فلاح وأننى صعيدى، أليس عبد الناصر كله من بلدتنا؟..

الذى جاء فى دماغى أيامها أنى يجب أن أسافر إلى مصر، ولم أكن أعرف يابوى أن اسمها القاهرة، لكننى منذ جعلت أهتم بسماع الراديو كلما تواجدت بجواره، كنت أسمع المذيع وليس فى فمه سوى كلمة: هنا القاهرة! هنا القاهرة! هنا القاهرة!. قلت وما القاهرة هذه ياجدعان؟ قالوا أنها مصر يابهيم! التى فيها سيدنا الحسين والهرم والسيدة زينب والإمام الشافعى والأزهر الشريف!. صحت قائلا: الذى تخرج فيه أعمامى وأخذوا شهادة العالمية؟ قالوا: نعم. قلت: والله لأسافرن. قالوا: تسافر أنت إلى مصر ياحسن ياولد حميدة؟! قلت: أعمامى من قبلى سافروها. قال «برعى» ولد الفرطوس: مصر لو رأتك انزاحت عن مكانها ورحلت. وقال «هادى» ولد «مخيمر العيان»: والله لتغرق. فضحكوا حتى فرجوا على الخلق. قلت لنفسى! وهل هذه مشكلة؟ وتركتهم

وانصرفت، ولكن صوت المذيع بقى فى أذنى ليل نهار يصيح فى تفاخر كبير" هنا القاهرة! فأكاد أضع ذيل جلبابى بين أسنانى واقلع عليها .. لكن ذلك أخذ منى وقتا، ذيل جلبابى موضوع بين أسنانى على الدوام وكنا فى موسم القطن، أهجم على مفارش الجمع فأدحرج زكيبة إلى مخبأ آمن ثم أحملها وانطلق: أو أملأ حجرى مرات عديدة. أكرمنى الله وحوشت مايزيد عن قنطارين وفى احدى الليالى جئت بتاجر من بلدة بعيدة عاين القطن واشتراه بمبلغ حلو أغرانى بشراء محفظة بسلسلة مشبوكة فى عروة الصديرى، فرحت بها أعظم الفرح وقلت لها: ان شاء الله تظلين عامرة، وقلت لنفسى: شىء ممتع أن يكون فى جيب الواحد محفظة والأمتع أن يكون فى المحفظة نقود، وكل الناس فى جيوبهم محافظ ولكن ما كل المحافظ فيها نقود، انما النقود فى أكياس التجار، ومفروطة فى جيوب ملاك الأطيان، ومكومة فى خزائن تحت الأرض!.

جاءنى الهاتف أن لى لقمة عيش مقسومة فى مصر القاهرة التى فيها الثورة والجيش وفيها الخير كله والنعيم كله. دخلت على أمى قلت لها: كم يكفيك ياأم إلى أن يخبز الله لى عيشا فى مصر؟ قالت: يكفينا ما يرزقك الله به قل أو كثر. أخرجت المحفظة فمدت أمى كفها وسحبت زغرودة افزعتنى وفرحتنى. اخرجت من المحفظة جنيها مددته نحوها واثقا أنها سترقص فرحا به وحده معتبرة أنه فضل وعدل. نظرت فى عينيها فرأيت هذا فسحبت

الجنيه الاخر وشرعته نحوها: مالوش تانى. قالت باسمة: الجنيه؟ قلت ضاحكا: بل الله ياوليه. ورحت أعد حتى خمسة: كفى هذا ياأم؟. بسطت ذراعيها رافعة كفيها نحو السماء صائحة: ان شاء الله ما اشتهيك! الاهى يكتب لك فى كل خطوة سلامة ياحسن يا أبن بطنى! الاهى مايشمت فيك عدو ولا حبيب! الاهى يرزقك برزق اليتامى ويوقف لك ولاد الحلال! خد من قلبى وصرا!..

شعرت يابوى كأن بدنى كله يرتعش ودمى يفور صاعدا نحو السماء برأسى. اخوتى البنات تحلقن حولى صرن ينظرن لى فى فرح وبهجة وفى عيونهن رغم ذلك حزن كبير يابوى. أخى الرضيع يتسلق أكتافى يهبشنى بأصابعه الطرية ذات الرائحة اللبنية الحلوة فأخذت أقبله فى فمه فصار يعضعض فى أنفى بضراضيره فشعرت كأننى الاب وهم جميعا أبنائى ففاضت الدموع من عينى فمسحتها ضاحكا بصوت عال وقلت: لامى خذى يا أم! ليس خسارة فيك ولا فى أخوتى!.. صرت أعد حتى أكملت العشرة جنيهات، وتركت المحفظة تتدلى من سلسلتها كرأس ذبيحة ذليلة، ورفعت ذراعى وقلت لها ما كنت أسمعه دائما من عمى الأكبر الشيخ «عجلان»: اليد العليا خير من اليد السفلى ياأم! هذا كل ما معى من نقود وهى لك، لقد رزقك الله بها وكنت أنا مجرد وسيط وهاأنذا قد سلمت الأمانة وما عليك الآن ياأم سوى أن تعطينى أجرة السكة الحديد لأتوكل على الله من غد إلى مصر ان أحيانا المولى الكريم وأعطانا عمراً. فتحت أمى فمها وصارت

تفكر ومن فرحتها لم تدر ما تقول. وكانت أختى الكبرى «سلمى» جالسة ناسية نفسها فبان جزء كبير من وركها فرفعت عينى عنها منتفضا فسقط بصرى على جذعها الممتد وصدرها العريض الممتلىء فوقف بداخلى مارد من الخوف. نظرت برغمى إلى أختى الثانية «مندوهة» فرأيتها هى الأخرى عروسا تكاد تتفوق على «سلمى» وإلى الثالثة «سعدية» فرأيتها تملأ القلل واقفة وتميل بالكوز لتغرفه من الزير فتبدو وكأنها تشاغب خراط البنات الخبيث الذى يشكل مؤخرتها فى كل ميلة باستدارة جديدة وينحت خصرها فى كل استدارة بسحبة تفرق المسافة بين خصرها وصدرها النافر ويطيل من رقبتها السرحة المبرومة ويدهن وجهها البيضاوى كما ندهن وجه الفطير بالزبد والقشدة ويوسع من عينيها السوداوين تحت العصبة المشغولة بالفل والترتر. وبحثت عن أختى الرابعة «هندية» فوجدتها قابعة قرب الباب منهمكة فى صنع عرائس الطين. وكانت الدموع تريد أن تضغط على عينى يابوى، لكن ولدخالك سيد من يكتم الدموع. اعتدلت أختى الكبيرة «سلمى» وقالت لأمى: اعطه خمس جنيهات بحالها ياأم! فسوف يتغرب وليس له من سند غير الله والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود وليس أسود من أيام الغربة ياأم! وقالت أختى «مندوهة» بصوتها الناعم الدافع إلى البكاء باستمرار دون أن يبكى: ليس خسارة فيه ياأم! انه الرجل وهو الذى يأتى بها. وقالت أختى «سعدية» بصوتها الرجولى الجميل ومن بين شفتيها الغليظتين: ربنا يخليه! لسنا نطلب من الله غير صحته

ونفسه فى الدنيا. أما أختى «هندية» فقد استدارت نحونا عائدة تمسح يديها فى ثوبها ووجهها كله عبارة عن بسمة لاهية كأن شيئا لا يدور حولها ولكن فى عينيها بريق الانتظار لأى خدمة نطلبها..

يومها أكلنا ذكرا من الأوز المزغط من شهر مضى. ومن صبيحة ربنا صررت هدومى كلها فى جعبة من الورق مكتوب على وجهها شاى زوزو ولها مساكة من الطرفين من خيط مبروم ملون يمر خلال كبسولات، كنت قد اشتريتها من مولد القنائى بقرشين من خمسة وعشرين قرشا نشلتها من فلاح شارد ذاهل داخل الملاهى. غمزتنى أمى بجنيهين مطويين أربع طيات وقالت لى: ربنا معاك ياولدى، ثم أحتضنتنى وقبلتنى. قالت أختى «سلمى» وهى تدارى الدموع فى عينيها وتتمخط فى ذيل جلبابها: خل بالك من نفسك ياخوى! لاتختلط بأولاد الحرام وأهل السوء! فقلت لها كله على الله ياأختى، ثم احتضنتها وقبلتها. وقالت أختى «سعدية»: بالسلامة ياخوى ترجع لنا غانما ثم احتضنتنى وقبلتنى. وقالت أختى «مندوهة» وهى تعتقل صوتها وكلامها خوف الانفراط فى البكاء: مع السلامة ياخوى، وأغمضت عينيها وتركتنى أقبلها على جبينها. وحملت أختى «هندية» جعبة الخلقات وقالت وهى لاتزال تبتسم: سابقاك على المحطة ياخوى. فنزعت الجعبة من يديها قائلا: والله ما يكون أبدا! ان محطة السكة الحديد بعيدة فى بلدة أخرى ولست آمن عليك الرجوع وحدك، ثم

احتضنتها وقبلتها، ووليت وجهى نحو الباب وخرجت، وبقيت عيناى مسلطتين على الهواء فى الطريق لا ترمشان خوف انهمار الدمع، لكننى كلما صادفت أحدا فى الطريق رفعت ذراعى بالتحية دون أن أنظر اليه صائحا: أشوف وشك بخير، فيقول لى: مع السلامة ربنا وياك.

ألقيت نفسى على كرسى القطار بجوار الشباك وجعبة الهدوم على ركبتى، فلما صفر القطار وزحف، وزحفت إلى الوراء كل معالم البلدة انهمر الدمع غصبا عنى، فأغمضت عينى وتركته يسح كيف يشاء، حتى نمت، وكلما فتحت عينى ورأيت الأرض وأعمدة التليفون والشجر يتراجع خلفى دخت وغطست فى النوم من جديد حتى صحانى واحد من الصعايدة قائلا أننا صرنا فى باب الحديد. قلت وما باب الحديد هذا ياولد بلدى؟ قال: بوابة الدخول إلى مصر من المحطة. قلت: هل وصلنا اذن إلى مصر؟ قال: حمد الله على السلامة. صحت قائلا من فرحى: هنا القاهرة. ضحك كل من فى عربة القطار وراحوا يتساقطون على الرصيف ويدفعوننى بينهم وسط زئيط هائل وأرصفة عديدة وسقف من الحديد والجملون وكمسارية وشيالين وباعة جرائد وفول سودانى وحلويات وشاى وكازوزة وماسحى أحذية وزيطة وزنبليطة. فلما صرت فى الخلاء كانت يدى قد أمسكت بالورقة المكتوب فيها اسم رجل بلدياتى يعمل مقاولا للأنفار هاهنا ومقر عمله جبل المقطم.

ماله من ثان

الأولة ـ مقابلة شخصية مع الدنيا

دلنى أولاد الحلال على جبل المقطم ولكن أحدا لم يستطع أن يدلنى على بلدياتى. أننى وأنا أسأل عنه بين المعلمين عثرت على بلديات آخرين كثيرين، منهم رجل من بلدة «أولاد الياس» شغلته تكسير الجبل بالديناميت. قال لى: «تريد تشتغل؟». قلت: «نعم». قال: «كم تطلب أجرا؟». قلت: «لا أعرف». قال: «أعطيك عشرة قروش بحالها». قلت: «تشكر». قال: «تعرف هذه الشغلة؟» قلت: «أتعلم». قال: «شغلتك معى أن تحمل قطع الحجارة فى قفة وتنقلها إلى بعيد!». قلت: «ماشى! ربنا يعيننى!»..

دور فالثانى فالثالث فالرابع عشر، جاءت الظهيرة وتدلدل لسانى من العطش، وصرت أجرجر قدمى وأتألم من ورم يبقبق على سطح دماغى، والرجل ينظر لى ضاحكا. هات يدك ياولد عمتى، تحسس هذه البقعة فى رأسى، هذه، ضع أصبعك مكان اصبعى هذا فوق قمة رأسى بالضبط، فما هذا الذى تلمسه يدك؟ أنها دمامل متجمدة فوق رأسى أليس كذلك؟! أنها من أثر الشيل

فى يوم واحد هو ذلك اليوم الذى أنهيته بالضالين، ورحت أشرب جرعة ماء من عند رجل آخر مجاور، شغلته نفس شغلة صاحبنا. قال لى: أنت منين ياشاطر؟ قلت: من الغنايم ياآبا. قال: أحسن ناس! تجيش تشتغل عندى؟ قلت: وهذا الرجل الذى اشتغل عنده؟ قال: لا يهمك منه! سأعطيك اثنى عشر قرشا فى اليوم ولن تحمل دبشا! ستمسك لى الفتيل أثناء ما أشتغل. قلت: ان كنت تحمينى من الرجل الآخر أهلا وسهلا. قال: خليها على الله. المقصود، نمت فى محجره ذلك المساء، فى الصباح اشتغلت معه، يوم يومان جمعة شهر أربعة أشهر، أرى بين يدى مائة وخمسين قرشا أرقص من الفرح إلى مكتب البريد أرسل المبلغ لامى..

غير أن الرجل تملعن يابوى وساق اللؤم علىّ، بدأ يشيلنى قفف الدبش هو الآخر حتى انعجنت رأسى. الرجل كان يسكن فى حى اسطبل عنتر بجوار دار السلام على خط المعادى من الطريق الزراعى، وقد أحس أننى أنوى التملص منه فأراد أن يستبقينى بصنعة لطافة، قال لى: أليس لديك نية فى السكن ياولدى؟ قلت. لدى. قال: تسكن فى اسطبل عنتر؟ قلت: أسكن فى أبى زيد الهلالى نفسه. قال: اليوم تذهب معى إلى البيت..

فى حارة تبعد عن الحارة التى يسكن فيها بحوالى خمس حوارى فرجنى على عشة مدفونة بين صف من العشش مليئة بالخروم والشروخ ايجارها خمسون قرشا فى الشهر، قلت: بركة ورثى، ونقلت اليها جعبة هدومى، وفى الصبح اشتريت حصيرا

ومخدة وبطانية جيش قديمة وقلت لنفسى هاأنت قد أصبحت ذا بيت فى مدينة الحسين والأزهر والسيدة.

كل يوم أفوت على عربة من عربات الفول «أشمط» ثلاث أربع ارغفة مع طبق الفول أبو زيت حار وحزمتى البصل فيخيل لى اننى قد صرت أبا زيد الهلالى سلامة، وأتكل على الله صاعدا الجبل لأتقابل مع الشمس فى فتحة المحجر. وفى طريقى كل يوم أمر على الكورنيش لكى أتفرج عليه فأرى السماكين فى مصر القديمة يفرشون بأسماكهم صانعين سوقا كبيرة منظرها يفرحنى. وكانوا كلهم يبيعون: وكنت فى الأساس أفكر فى شراء سمك آكله، لكننى صرت أدمن الفرجة ولا أشترى أبدا، إلى أن وقفت ذات صبيحة اتفرج على رجل وهو ينقل زنبيل السمك إلى عربة نقل وكان يحمل وحده فلما رآنى قال: بأيدك معاية والنبى يابلدينا. فشمرت ثوبى وحملت معه الزنبيل، ثم ساعدته فى غيره وغيره حتى انبسط منى وقال لى: تشتغل معى؟ قلت: تعطينى كم؟ قال: أعطيك ريال فى اليوم، قلت: قليل قال خمسة وعشرين قرشا ولا مليم بعدها. قلت: على بركة الله. قال: فاركب. فركبت بجوار السائق وانطلقت بنا السيارة إلى المعادى، حيث يوجد لهذا الرجل محل كبير يبيت فيه الأسماك..

لص أنا قيراط، أما هو فأربعة وعشرين قيراطا فى اللصوصية اى والله ياخال. تعلمت منه الكفت ياخال. مهمتى كانت الجلوس أمام حوض السمك الذى يشبه قاربا من الألمونيوم، أتبصص على

الزبائن وهم ينتقون الأسماك ويضعونها فى القراطيس قبل الذهاب إلى الميزان الذى يقف المعلم قصاده. وكنت أظن أن واجبى نهر الزبائن ومنعهم حين أراهم ينتقون السمكات الصاحية كلها فى قراطيسهم، حيث أصيح فيهم قائلا: ومن الذى سيشترى هذا السمك الصغير بعد نقاضته البيع عندنا كله فى رقاب بعضه الكبير يزن الصغير. فبعض الزبائن يصيح فى محتجا، وبعضهم لا يسأل فى وينتهز فرصة الصياح فيملأ قرطاسه بأطيب ما فى الحوض من سمك، فأصرخ فيه منبها أننى لست نائما على عينى، وأقف مسرعا فآخذ القرطاس منه وأدلقه فى الحوض. حاجات طريفة ومسلية كانت تعجبنى فأفعلها بلذة كبيرة. هنا يشخط المعلم فى ـ لزوم الصنعة واتقان المعلمة ـ يأمرنى بأن أترك كل واحد ينتقى على كيفه، صحيح أننا سنبيع السمك المتبقى بالخسارة ولكن الزبائن فى النهاية هم زبائننا والمحل محلهم!..

شيئا فشيئا بدأت أغفل عن الزبائن وأنتبه إليه هو، أراه ينتقى للزبون بنفسه ما يختاره الزبون، ويأخذ القرطاس ويستدير معطيا لنا ظهره العريض واضعا القرطاس على الميزان، فاذا به رغم امتلائه يحتاج لسمكة صغيرة حتى يكتمل الرطل، أو معها أخرى كبيرة مغرية ليصير الوزن رطلين ونصفا فى حين أن الزبون طلب رطلين فقط، لكنه اكراما للسمكة الكبيرة يقبل الزيادة. يعطينى المعلم القرطاس لأضع عليه ورقة أخرى وأطوى عليه حوافيه أنظر فى القرطاس فلا أجد السمكات الكبيرات الكثيرات

التى رأيت الزبون يحشرها فى القرطاس حشرا، فأتمخول ويروح مخى يضرب يقلب.

المعلم لم يجد مفرا من تعليمى سر المهنة لكى أتصرف اذا ذهب هو إلى السوق وقضاء المشاوير. تعلمت منه أن أول شىء أفعله بمجرد دخول الزبون، أن أسارع ببرم قرطاس كبير واسع. ثم أقف أمام الميزان الموضوع على بنك عريض وحوله الصنج، أترك الزبون ينتقى بيديه ما يشاء من الأسماك الكبيرة، وبخفة يد الحاوى أكبش جانبا كبيرا من الأسماك الصغيرة الميتة وأملأ بها قمع القرطاس جاعلا رءوسها فى القاع وذيولها فى الخلاء، واذ يقول الزبون: كفى، أستدير نحو الميزان معطيا للزبائن ظهرى فاردا كوعى قدر ما أستطيع، وفى لمح البصر تكون يدى قد سحبت السمكات الكبيرات من رءوسها وتركتها تتسرب إلى برميل كبير موضوع تحت البنك. أعرف طبعا أن الزبون عندما يصل إلى داره ويرى السمك سيرتاع لأنه لن يجد سمكة واحدة مما انتقاه. فاذا فكر فى الرجوع لى فلن يخلص منى، خذوهم بالصوت لئلا يغلبوكم، أصرخ فيه الهيه وأدهيه افرج عليه أمة محمد، مذكرا اياه بأننى وزنت ما أعطاه لى بنفسه. هو فى الغالب لا يرجع، وبعضهم قد لا يلحظ. وأن تكشف لى أن الرجل الذى استكردته مهم ويملك قدرة الاضرار بى فاننى بصنعة لطافة أبيعه وأشتريه، أغسله واكويه، ولكن بالأدب كله بالأدب ياآبا، أمال. تقول لى كيف أنشره وأطويه أغسله وأكويه أبيعه وأشتريه؟!.

الأمر بسيط يابوى، سر النجاح هو الأدب حتى لو كان أدبا مزيفا لا أصل له ولا فصل: نعم ياسعادة البيه! أنا متأسف خالص ياأفندم! لعله قرطاسك تاه فى قرطاس آخر فضل طريقه إلى فارغ عين رضى به على عياله!.. وفى هذه المرة أزن له ما يختاره بالفعل وأعيد فحصه عليه واحدة فواحدة ومع السلامة ياسعادة البيه ألف ألف سلامة ياأفندم دا محلك وأنت تأمر والغالى يطلع لك!.. سواء لدى أن فهم سيادته أننى آكل بعقله حلاوة أو لم يفهم فإنه فى النهاية يؤكلنى عقله بارادته بمزاجه ويكون على قلبه أحلى من العسل، البرايز والشلنات تتدافع نحوى بغير حساب فى كل مرة يجىء فيها وأنا نازل فيه أكلا بالطول وبالعرض وبالناكوسى قبة ومساحة!! إن أعطيته ثمينتين اثنتين شيلته على شرفهما خمسة ستة أرطال سمك لا يمكن بيعه وحده ولو بالمجان مع أننى بعته له بسعر الثمين الغالى يدفعه صاغرا وهو يقول سبحان الله والحمد لله!.. الدنيا يابوى تحب الشطارة والأونطة وهذا ما بان لى فى القاهرة فآه منها ومن أهلها آه!..

تعرف؟! هذا الدرس ـ صدقنى ياخال ـ هو الذى حببنى فى هذه البلدة وكتب لى عيشا فيها. أنه درس غويط ياخال، غويط من هنا لحد الصباح، فهمته وحدى، بالفهلوة قل بالبركة والتكال على الله يجوز، إنما وجدتنى ذات ليلة مكفنة بالضباب الأسود الغطيس، وأنا داخل فى عشة فى اسطبل عنتر. على مرسى النيل تبيع الشاى والدخان المعسل، وكنت أشد النفس من الجوزة بعمق حين

برق الدرس فى دماغى كأنه المعنى كأنه الآية المنزلة، وصوت كأنه صوتى يغمزنى فى جنبى قائلا: الحياة لم تتغير ياأبا على! لا تظن نفسك انتقلت من حياة التشرد واللصوصية إلى حياة التحضر والمدنية والثورة الاشتراكية المباركة لا! لا يا حسن وألف لا! ان الحياة هى الحياة فى الصعيد أو فى القاهرة، بل انها فى القاهرة أفظع، السرقة فى الصعيد تتم فى ستر وتكتم وبقسوة تهدر فيها الدماء وتطير الرقاب!! أما فى القاهرة فالسرقة تتم فى وضح النهار عيانا بيانا على عينك ياتاجر ــ أقصد يابوليس! غير أن السرقة هنا فى القاهرة ياخال سلاحها الأونطة والنعومة والميوعة! الخشونة لا تنفعك هنا؟ سوف تجرح الآخرين وأنت تنفذ بينهم إلى اغراضك فليفظونك أو يضغطون عليك يغطسونك! نعومتهم كنعومة جدران المعدة قوية تهضمك تحولك إلى خراء يتبرزونه فى المجارى والطرقات وهلف آخر مثلك ينظف وراءهم!..

ولد خالك ياولدى ابن ناس طيبين كما تعرف، لا يغرنك أنه طول يده على بتاع الناس وسرق من غيطان الصعيد الطافحة بما يستحق أن يسرق. أنا فى النهاية ابن أعمامى الفقهاء وفى عروقى وقلبى الكثير منهم، أعرف الله مثلهم وكنت صبيا أسرق وأنا صائم فى عز الحر، وأصون الأمانة والله ياخال، المعلم السماك يترك لى محله اليوم بطوله وحين يجىء يفرغ الحصالة فى جيوبه وينصرف. واع حضرته، يعمل على واعيا! إن كان واعيا قيراطا

فأنا أفـهمهـا وهى طايرة. والأمر على هذا النحو ياخـال: ما الذى يدعو رجـلا كهـذا لأن يثق فى كل هذه الثقة مـع أنه لم يعرف أى شىء عن حيـاتى؟ إنما هو يضرب عـصفورين بحـجر واحد كـما يقول عـمى الكبيـر، يوهمنى أنه يعطينى الأمـان لأكون محـل ثقة ويوهمنى من ناحية ثانية أنه لا يعد ورائى فـيغرينى أن أستغفله. حضرته لم يكن يعـرف أننى موقن من أنه ينزوى فى ركن قصى ويفرغ جيـوبه ويعد الغلة بالمليم، مثلما أنا موقن من أنه سـيجدها بالمليم كما حسبها..

ذات يوم جبرنا الله وشطبنا فى بحر ثلاث ساعات، جاءت الغلة بغلات وفيرات وبقى من السمك حوضـا صغيرا اعتبره المعلم زائد عن الحـاجـة بيـع أم لم يبع. فـانصـرف المعلم إلـى بعض شـأنه وأوصانى بأن أتصـرف فى هذه الأسماك كـيفمـا اتفق بأى ثمن، فإن تم لى ذلك أغلقـت الدكان وانصرفت قلت: الله مـعى. جلست. هب للنبى هجـمت الزبائن هجمة ثانيـة: عبىء ثلاثا! عـبىء أربعا! عبىء خـمسـا!.. أخذت أبيع بنفس الطريقـة التى علمنيهـا صاحب الدكان، بنفس الـسعر الذى بعنا به الثـمين فى مطلع النهـار، حتى ادخرت فى النهاية حوالى عشرة أرطال من سمك متنقى جاءت من نصيب امرأة غندورة سحرتنى بعينيها فأبرزت لها ما أخفيه تحت ورق الشجـر الأخضـر، تجاهلت يدها المـلاءة فانفرطـت عن قوام كالفـرس لهلبنى فكشفت الورق الأخضر فـبانت طبقـات الأسماك

مرصوصة بعناية كـالموج المتلاحق قالت: بكم؟ قلت: بالصلاة على النبى. قالت: اللهم صل وبارك عليه. وكطفل يخشى من لمس لوحة معروضة فى معرض مدت اصبعها خلسة ولمست احدى السمكات لمسة سـريعـة وقالـت زن.. فوزنت، وأعـطتنى مـا طلبت وتركت القروش المتـبقية. إلا وصـاحب الدكان قد أهل داخلا، كـانت نقود المرأة لا تزال فى يدى حـين دخل صـاحبنا إلـى الحصـالة، اذا به يفرغهـا فى جيبه ويمضى قـائلا: يلا شطب بقى واقفل. غلى الدم فى عروقى. وضـعت نقود الولية فى جـيبى وقلت: استنى عـشان تاخد مفتاح دكانك. قال دهشـا: مش حتفتح بكره؟. قلت: ان أحيانا ربنا ورائى مشوار لحد الصعيد. وأغلقت الدكان وسلمت له المفتاح ومضيت..

فى المساء جاءنى فى المقهى التى يعرف أننى بدأت أجلس عليها فى اسطبل عنتـر. صـاحـبهـا من بلدة مـجـاورة لبلدتنا ويعـرف أعمامى منذ صغره، وكـانت خطابات أمى تجيئنى على هذه المقهى، وهى مقرى الذى يسأل فيه الناس عنى ويستدلون منه على أصلى وفصلى. أول مـا شفت المعلم السمـاك مقبلا قـمت إليه وطلبت له الشـاى والذى منه ثم قلت له: «شوف ياحـاج! واجبك تاخـده لكن شغل عندك تانى لا». لماذا ما السـبب؟ قلت: «هكذا! أنا الآن خاضع للشيطان الآمـر بعدم الشغل وأى كـلام فى أمر الشغل لن يفـيد». فسلم على وانصرف.

جلست منجعصا يابوى وأنا فى أتم سعادة. وضعت رجلا على رجل أخذت أطرحها فى وجه الزمن. سرح دماغى لطشه الهواء نعنشه شعرت بلذة كبيرة تخلصت من هذا الرجل اذ هو لص وحلوف . لكن ماذا سأفعل غدا؟ هذا ما لا يريد دماغى أن يكلمنى فيه الان!. عاندته، قمت من لحظتى إلى محل شكله خواجاتى فى حارة قصية من حوارى مصر عتيقة، أشترى منه زجاجة صغيرة يسمونها الخمسينة وفيها خمرة يقال لها الكونياك، وعدت بها إلى بلدياتى حيث لزمت الظلام المكتوم فى أقصى الرصيف فى دورة كشك السجائر، جلست منجعصا وكل حين أفتح الزجاجة وأرشف منها رشفة وأقزقز الفول السودانى. مادريت كم الساعة حين انتهيت إلى أن الزجاجة الفارغة قد أخذت تكر على الأرض رائحة جائية حسب اتجاه الريح، كنت سكرانا بحق ولكننى منتبه إلى كل شىء، أردت أن أؤكد انتباهى ويقظتى فنهضت واقفا ومضيت بضع خطوات وأمسكت بالزجاجة فوجدتنى أقف بها حائرا فى وسط الطريق، فالقيت بها إلى بعيد وهدفى أن تسقط مباشرة باحكام النشان فى قلب صفيحة قمامة معلقة فى عامود نور من خلف هديم، الا أنها اصطدمت بالعمود وهوت على الأرض هشيما فجلست ارتعش كطفل صغير أتى ذنبا عظيما. لحظتها رأيت المعلم «شندويلى» صاحب المقهى يرص كراسيه فوق بعضها استعداد للتشطيب. وكنت قد رأيت السماك أثناء انصرافه قد انتحى به ركنا وراح يحدثه فى أمرى وهو يهز رأسه. فلما لم يعد سوى الكرسى

الذى أجلس عليه سحب هو كرسيا وجلس بجوارى ومد يده لى بسيجارة، تقبلتها شاكرا وأشعلت له ولى. شعشع النفس فى دماغى، عاجلت المعلم «شندويلى» بقولى: «ألست بلدياتى يامعلم شندويلى؟» قال: «نعم». «هل فى هذا شك يا أبا على؟» قلت: «تحب لى الخير؟» «تعرف أننى ابن ناس طيبين أم لا؟». قال وهو يغمزنى بعدساية أفيون: «ربما لا تعرف أهلك أكثر منى.. اسألنى أنا عنهم». قلت: «يعنى اذا ميلت عليك ذات لحظة وقلت لك يامعلم شندويلى سلفنى عشرة جنيهات فهل تأمننى وتفعل؟». قال مشوحا فى وجهى: «لو عيل من عيالى ياأبو العم». قلت ـ ولولا شعشعة الخمر ماجرؤت: «أنا يا أبو العم محتاج لسبوبة». دب يده الخشنة فى جيب المريلة ـ التى لم تكن تليق على شكله وقوامه الصعيدى أبدا ـ فاخرج ورقة بعشرة جنيهات لكزنى بها صائحا بصوت جهورى: «على بركة الله لعلك تسكر بها مثلما أنت سكران الأن». فأفقت فى الحال يابوى واعتدلت، قلت له: «من غلبى ياأبو العم.. لكن أطمئن على». قال: «أنت حر»، ثم أردف: «كل انسان فى هذه الحياة معلق من عرقوبه». قلت: «نعم كالذبيحة». قال: «براوة عليك مادمت تفهم هذه وحدها.. عرقوب البنى آدم هو آخر عضمة فى كعب القدم.. وأنت بكعب قدمك تصل إلى مكان الخطاف.. افهم دى جيدا ياأبو العم وبعدها توكل على الله». وكنت قد فهمتها بالفعل حق الفهم.

فى الفجر كنت واقفا فى وكالة السمك بغمرة. تسوقت تشكيلة ثمينة من البلطى والبورى والبياض والقراميط. ملأت سلتين وضعتهما فوق بعضهما، استأجرت ميزانا بصنجة وضعته فوق السمك. حملت ذلك فوق رأسى مضيت أبحث عن مركبة توصلنى إلى الضواحى والمناطق البعيدة مثل المعادى وحلوان ومصر الجديدة وجاردن سيتى والهرم، أختار الشوارع النظيفة ذات البيوت المهيبة: «طازج ياسمك».. هكذا أروح أنادى. يطل على هذا ويتوقف ذاك. أوزن ياعم.. أوزن ياعم أوزن ياعم جبرنا والحمد لله..

احلو الحال ياخال. أخذ المعلم «شندويلى» جنيهاته العشرةعرفنى معلم فى الوكالة يدعى «الحباك»، صار يمدنى كل يوم بما أشاء، على أن أعود إليه عصر كل يوم لأحاسبه مختصرا عرقى ورزقى. كل شىء نصيب يابوى، كنت ماشيا فى شارع من شوارع المعادى المتشابهة لا اسم له بل له كالمساجين رقم معلق على صدره بفانلة زرقاء أيضا. وكان الله قد جبرنى ولم يبق معى سوى حوالى عشرة أرطال صممت عل بيعها بالسعر الذى أبيع به لسكان الفيلات والسرايات، السعر «القرسطقراطى» للحى «القرسطقراطى» هكذا أفهمنى المعلم يابوى. طازج ياسمك.. هكذا كنت أواصل الصياح بصوت عال متحمس لا يغيظنى فيه غير أنه صوت صعيدى لا يزن كأصوات العيال البياعين أولاد البلد، المهم، مادريت الا وبواب أسود مهيب يتكفن بالأبيض الشفاف الناصع

ويتواجد البياض بين شفتيه وفى عينيه صاح بى وهو يقبل نحوى: «تعال ياولد». ظننته يبغى الشراء فهرولت نحوه ثم أقعيت كاشفا الغطاء عن السمك، فاذا هو ينهضنى بيد غليظة ويسلمنى لافندى أجعد الشعر أشيب أصفر الوجه والعينين ذى شارب كثيف متعجرف. قبض على كتفى وراح يطوحنى فى الهواء صائحا: «ايه اللى جابك هنا يا ابن اللى واللى واللى»، شتيمة منتقاة يابوى من بئر الوساخة النتنة لا اتوقع أن أسمعها فى الحى «القراسطقراطى» هذا. صرت خرقة فى يديه يفعل بها ما يشاء وأنا أصفق كفا على كف وأقول: «ماذا فعلت بحق الله يارب.. فية ايه ياسعادة البيه.. أنا غلطان ياسعادة البيه حقك على ياسعادة البيه». وسعادة البيه النتن رأسه وألف سيف أن يسلمنى إلى البوليس! العفريت الذى طلع عليه: البوليس!. أبكى أنا بحرقة وهو يصيح فى البواب بغلظة: «أطلب البوليس قلت لك»!!..

الله وكيل يابوى. ماكدت أتمها إلا وانفتح شباك مواجه أطلت منه سيدة جميلة تطل من عينيها شخصية قوية ذات سطوة صاحت فى الأفندى والبواب: «سيبوا الراجل فى حاله»، فكأنما قولها أمر حاسم مجاب، انفكت قبضة الأفندى عن كتفى، وكسكس البواب متواريا عن الأنظار. رحت أعدل ثيابى وألم بضاعتى، إلا والسيدة تصيح بى: «تعال هنا يا راجل انت.. لف وتعال»، فنظرت إلى حيث أشارت فتعين على أن أدخل من باب الفيلا وألف فاصعد السلم البعيد على اليمين. صرت على باب كبير مفتوح

والمرأة واقفة فى فتحته تبارك الخلاق فيما خلق، جعلت أنظر إليها فى بلاهة البهيمة تفاجأ أمامها بوليمة تبدو مباحة، نظرت هى فى عينى فكسرت نظرتى. قالت: «أنزل». فأنزلت حمولتى وكشفت الغطاء عن السمك. زامت فى رقة ثم قالت: «بكم؟». قلت «بكذا.. ولأجل خاطرك بكذا». قالت: «زن». فوزنت كل ما معى فأخذته وغابت فى الداخل، ورحت أرقب ظهرها ياخال وهى تمشى، الفتنة تمضى على قدمين ياخال. فقلت لنفسى عساها تكون النداهة التى أسمع عنها فى الحواديت تنادى الناس بأسمائهم فى الليالى الحالكة متنكرة فى شخصيات معروفة لهم لكى توردهم موارد الهلاك؟ ثم قلت لعلها الدنيا الفاتنة تزمع أن ترينى نفسها بعد مر الشقاء!! ثم رفرف قلبى ورقص عاليا لكنه خفق واهتز مع خاطر يقول لعلها العاهرة التى تطلع للصعايدة فى المدينة لتشترى ذكورتهم الفتية بكنوز الدنيا كلها!.. أى وحق الله يابوى ما ظننت أن امرأة فاتنة كهذه تطلع لى من تحت طقاطيق الارض لتنجينى من خطر قابض على وفوق ذلك تشترى كل ما معى بالسعر الذى طلبته!.. ظللت أتوقع مفاجأة عظيمة وهى تقبل من الداخل حاملة ورقة مالية كبيرة، فلما رفعت عينى عنها تأدبا اصطدم بصرى على الحائط المواجه بصورة كبيرة فى برواز كبير لجمال عبد الناصر وأخرى مثلها لعبد الحكيم عامر وتحتهما صورة لضابط بالملابس العسكرية لم أتعرف عليه ولكن على صدره وكتفيه تعاليق وتزاويق وضبابير ونجوم كثيرة.. فرفرف قلبى من جديد

كالطائر يستعد لهبوط على عشه الآمن، تناولت الورقة المالية الكبيرة غير منتبه إلى أن المرأة تقول لى: «خذ ياراجل ولا تجىء هنا ثانية»!. قلت: «حاضر ياست هانم»، وكان يداخلنى شعور يقين بأن هذه المرأة تتكلم لمصلحتى. أخرجت كيستى القذرة الزفرة وفردتها وجعلت أبحث عن فكة، لكن المرأة مدت يدها البيضة المتختخة الحافلة بالأساور والخواتم نحوى قائلة: «مش مهم! مش مهم!». رفعت بصرى إليها محاولا التلكؤ، قلت: «كيف ياست هانم! الحق حق وحضرتك تستحقين ثلاثة أربعة جنيهات» شوحت قائلة: «مش مهم! خليهم علشانك بشرط ألا تجىء هنا مرة أخرى». حارت نظرتى والله ياخال تحاول اختراق عين المرأة ومعرفة القصد الحقيقى من هذا الحادث المهول. ولابد أن منظرى لحظتها كان مضحكا، حيث اشتعلت البسمة على شفتيها فاضاءت كالكلوب على وجهها الجاد الحاد الناعم المنتفض. لمت نفسى بسرعة وصرت أخطو خطوة وأنظر ورائى منتظراً أن تغير المرأة الفاتنة رأيها أو ينقض على شرطى. صرت والله أجر خطواتى على السلم كأن قوة تشدنى بالأوناش إلى الوراء، فلما سمعت الباب يغلق من ورائى ضربت جبهتى بقبضتى وأيقنت أنها الدنيا وقد أقبلت على بالفعل طبقا للحلم لكنها فرقت بنطا واحداً انحرف شىء فى الزمن فى الأمر لا أدرى ياخال! لماذا غيرت الدنيا الفاتنة رأيها فى آخر لحظة بعد أن نادتنى بنفسها بعلو حسها طاردة عنى الوحوش المؤذية فتحت لى بابها على وسعه أرتنى لحمها

المقدس عاريا تحت غطاء شفيف أى على أهبة اتخاذ الخطوة الأخيرة التى كان يتعين على وحدى أن أخطوها برفع هذا الغطاء الشفيف والدخول إلى المدائن المسحورة لكننى من غباوتى وتخانة مخى لم أفعل!! ألهذا صغر شانى فى نظرها فاحتقرتنى وردتنى عن بابها بلطف وأكتفت بجبر خاطرى مصحوبا بتحذيرى من الحومان حول سورها ثانية؟! مخى تبرجل يابوى! لابد أنها كانت تنتظر منى أن أدخل وراءها بجرأة أريها حقيقة نفسى التى تحت هذه الخرق الزفرة، لم لا يكون لا؟! لم لا يكون نعم؟! ؟! فالدنيا فاتنة، وكل فاتنة غانية، وكل غانية دواؤها قوة الذراعين والشكيمتين والعينين، ان توفر ذلك فى رجل مثلى استطاع أن يلوى خزامها يركبها. الدنيا مهرة شرسة ان لم يكسر شراستها ركيب حقيقى فارس حقيقى سابت وانطلقت تبحث عمن يلوى منها الحزام ينفصها لا يتركها الا مصاصة قصب..

صدقنى ياخال أننى حتى هذه اللحظة لازلت بكل نفسيتى وكيانى وربما جسدى واقفا على بوابة الفيللا معطيا ظهرى للسلم الصاعد إلى شرفات النعيم أخاير ذهنى ويخايرنى فيما يجب أن أفعله، ولكن أفعل ماذا يابوى؟ إن صوتها الأمر الناهى يمنعنى من أى فعل.

اخترت جانب الأمان بالطبع، حرمت على نفسى السير فى مثل هذا الشارع ثانية.

الثانية ـ كيف شردتنى التسعيرة ؟!

فى صبيحة يوم بعد انصداد نفسى عن العمل أياما يممت شطر حلوان بحمولة كبيرة بسفر. أقمت فرشا على تخوم سوق مجاورة لمحطة المترو. فردت موازينى، فحضرت الزبائن وبدأت وفودها تتلكأ عندى وبدأت أزن وأقبض والحال آخر سبهللة، المفروض أن أبيع ـ حسب التسعيرة ـ الرطل بثلاثة عشر قرشا ونصف للبلطى الكبير، وتسع قروش للمتوسط، لكننى كنت أبيع بخمسة عشر قرشا، فى رقاب بعضه الكبير يسند الصغير..

رن الكف على مقربة منى فارتعب قلبى، عرفت من صوت الرنين انه سقط على قفا واحد من بنى عمومتى، فمثل هذه الرنة لا يصدرها الا قفا من اقفيتهم! سبحان الله! اللهم اجعله خيراً!. سربت عينى إلى جوارى خلسة، رأيت معاون الشرطة والمخبرين يحيطون ببائع الفاكهة المجاور لى والمعاون لايجد لغة للتفاهم مع الفاكهى سوى الضرب على القفا بكل هذه القوة. لو كنا فى الصعيد ورن هذا الكف على قفا أى مخلوق لطارت فيه رقاب وقامت قيامات أما هنا فالدنيا كلها تنقلب عليك فى لحظة

وتحاصرك الدبابات لو جحرت فى وجه الحكومة. نظرت للزبائن الواقفين أمام فرشى ورجوتهم بحق الديانة والأمانة أن يقولوا للمعاون اذا سألهم أنهم اشتروا بثلاثة عشر قرشا ونصفا حسب التسعيرة فهزوا جميعا رءوسهم وقالوا فى ثقة واطمئنان: «دع عنك لا يهمك!». الا والمعاون زاحف نحوى بموكبه الشعنون. «بكم تبيع ياولد»؟ قلت: «بثلاثة عشرة قرشا ياسعادة البيه حسب التسعيرة». فرن الكف من جديد على قفاى هذه المرة ساخناً لاهبا تطايرت له شرارات النار من عينى. صحت دامع العينين: «كيف تضربنى هكذا ياسعادة البيه؟». زغدنى رجاله ،صاح هو قائلا: «بع بتسع قروش ياابن الكلب». قلت: «حاضر يابيه». ماكدت أتم كلمتى حتى كان الزبائن قد هجموا على السمك فعبأوه فى قراطيس صنعوها لانفسهم بأنفسهم ووزنوها على هواهم وراح معظمهم يرمى لى بضع قروش وبضع شلنات مقابل خمسة أرطال! فى لمح البصر كان «بتاع الناس» قد انتهى، صرت أصرخ وأمسك فى خناق المعاون والمخبرين «بتاع الناس ياولاد ديك الكلب! هاتولى بتاع الناس! خربتو بيتى ياكفره!»، وهم جميعا يضربوننى بالعصى والأحزمة والشلاليت حتى سوونى على الجنبين وتركونى جثة تفشخ حنكها باكية وأمامها بقايا متاع وبضع قروش وأطلال فرش وصنج بعثرته الأقدام فى زحام السوق!!..

عدت إلى مسكنى فى اسطبل عنتر، حصرت خسائرى فوجدتها افدح مما تصورت. لقد أخذت من المعلم «الحباك» بضاعة بستة وثلاثين جنيها والغلة التى معى كلها تسعة عشر جنيها الا قروش فمن أين لى بالباقى؟ ومن ذا الذى سيستطيع اقناع المعلم «الحباك» بأن الحكومة هى التى بعثرت رسماله على الرصيف وأباحت سلبة فبأى وجه أقابله؟! لابد أن أختفى عن أنظاره نهائيا فلا أراه أو يرانى الا وفى جيبى حسابه بالتمام! أما متى يتوفر لى مثل هذا المبلغ الكبير فأمر يعلمه الله وحده.

القصد يابوى، حودت على محل كان قائما على الكورنيش فى مصر العتيقة فيه بار وشرب خمر وأكل. قلت لنفسى: ضرب الاعور على عينه قال خسرانه خسرانه، وتوكلت على الله فدخلت هذا المحل، طلبت دجاجة وطبقا من الأرز وآخر من الخضار مع تلك المسماه بالخمسينة. أيقظت بطنى ورحت اعطيها وأدلق فيها كل ذلك حتى قمت فى النهاية مدووشا أمشى كالطاووس مع أن البكاء كان قد جفف عينى ودماغى، والضرب فصص عظامى دهسها دفعت ثلاثة جنيهات فى صمت وهرعت إلى مقهى المعلم «شندويل» فطلبت قهوة وجلست أدخن فى ركن الظلام. الا وكاتب المعلم «الحباك» يهبط على كأنما سقط من السماء، اذ كنت سارحا فى ملكوت الله متمددا على كرسيين وميلت لأرمى عقب السيجارة فوجدته قد جلس بجوارى! منذ متى جلس والله ما أدرى! لكننى حين نظرت فى عينيه خلل الظلام المترقق لقينى احساسه بالفرح

لانه استطاع أن يقبض على. أخيرا صرت مجرما وهناك من يتعقبنى للإيقاع بى. اعتدلت على كرسى واحد وقلت: «أهلا وسهلا». قال فاشخا حنكه: «ماجيتش تحاسب المعلم ليه؟ خير؟ أنت سكران ولا ايه؟». قلت باحثا عن صوتى «سكران نعم.. سكران من فعل الضرب والشتم والبهدلة». قال وقد ظهر من صوته أنه لن يصدقنى فى أى كلام أقوله: «ليه كفى الله الشر حصل ايه؟». انتفضت واقفا ونزعت الجلباب كشفت عن جسدى قائلا: «شوف ياخى.. الحكومة كسرت عضامى يابوى بعثرت البضاعة يابوى.. سابت الناس تهجم عليها وتنقيها بالتسعيرة الجبرية». أخذ يتفكر ثم زام وقال: «يعنى ضاع بتاع الناس؟!». قلت: «الله وكيل!! الذنب ليس بذنبى». فمد يديه وتحسس جيوب صديرى أخرج محفظتى وفتحها أخرج كل ما فى جيوبها، عده فاذا به ثلاث خمسات وبضع قروش وضعها فى جيبه وصار يلوح لى بإصبعه فى تهديد شرس : «اعمل حسابك!! رجلك ماتخطيش ناحية السوق بحاله!! المعلم ممكن يضربك بالرصاص ويتاوى جثتك ولا من شاف ولا من درى!»، ثم انصرف.

أروح فين ياولدى؟ أعمل كيف؟! جاءت صورة أمى وهى تودعنى عند السفر قائلة: «إلهى ربنا يحبب فيك المخاليق ورفاق الطريق»، فاقشعر جسمى، وهتف صوت فى دماغى: لسوف يحلها الحلال. وبالفعل، حمل المعلم «شندويلى» همى. أخذنى إلى مقهى كبير فى مصر القديمة عليه وارد يحتاج لأكثر من صنايعى. قال

المعلم «شندويلى» لصاحب المقهى الكبير: «هذا الولد يصلح نصبجيا نظيفا وهو من بلدياتى وعلى ضمانتى». قال صاحب المقهى الكبير فى هدوء: «وماله.. رزقه ورزقنا على الله.. خش ياولد وربنا شطارتك». وكانت رأسه غليظة منتفخة كرأس ثعبان ابتلع بطيخة، الا أن الطيبة كانت بادية على ملامح وجهه. شمرت ذراعى وفردت المريلة التى أعارها المعلم «شندويلى». لبستها فبدوت كأننى أقوم بتسميع الحركات التى يفعلها المعلم «شندويلى» فى شغله والتى يظن من يراها أنه أمام صنايعى قرارى نشيط مفتح، لكن المعلم ابتسم ابتسامة لم أتح لها وقال: «ومالهُ برضه .. كل شىء ييجى بالتمرين أن شاء الله». يوم بعد يوم تعلمت الصنعة، عرفت أن كل شىء بالفعل صنعة لها أهل ورجال. نجحت كعامل نصبة أصنع فى الساعة ألف كوب شاى وألف كنكة قهوة بدون عناء. لكن القروش التى يدفعها لى صاحب المقهى آخر النهار لا تساوى العرق الذى ينشال منى طول النهار، أعيش على البقشيش وأجمد اليومية فى الحوالة البريدية كل شهر لأمى. شخط فى المعلم مرة فشخطت فيه بالمثل فشتمنى فخلعت المريلة رميت بها واتكلت على الله إلى اسطبل عنتر.

قال المعلم «شندويلى» وهو يغمزنى بعدساية أفيون: «اسمع يا أبو العم! أنت ابن حلال مصفى. وهذا هو بركة دعاء الوالدين وبركة اعمامك الفقهاء الطيبين». قلت: «صدقت والله ولكن بختى كما ترى غير موات!». قال وهو ينقر بأصابعه الطويلة الخشنة

فوق ساعدى: «الدكان المجاور للعجلاتى على الكورنيش يريد صاحبه تأجيره وهو دكان يصعب أن يستنفع به شخص غريب! مارأيك لو أجرناه لك وفتحته قعدة شاى مختصره على قدها؟!». قلت: «بوفيه تقصد؟». قال: «عليك نور!! إيه رأيك؟». قلت: «يادار مادخلك شر». قال: «معك كثير؟». قلت: «سبع جنيهات وستين قرشا سأرسل منها حوالة بست وأصرف على الحوالة من الستين قرشا». قال: «لا حوالة ولا غيره هات مامعك!! حوله على أنا». فدفعت إليه بالمبلغ.

الحق لله تعب الرجل معى آخر تعب، استأجر لى الدكان واتفق مع البناء الذى أقام النصبة بالأسمنت والقيشانى، وخطفنا أرجلنا إلى السوق فاشترينا ثلاث أربع دست من الأكواب والبراريض والغلايات والكنك، وأعارنى ثلاث ترابيزات وعشر كراسى على سبيل الايجار بمائة وعشرين قرشا فى اليوم. هب للنبى فتحنا. من صبيحة ربنا حتى ما بعد منتصف الليل لا أفرغ من صنع الطلبات وتوزيعها. لكننى كنت أتعب يابوى، يجىء الليل على فانكفىء من الاعياء مستندا على النصبة لساعات طويلة.

الا وجاءنى ذات ليلة أربع رجال أفندية آخر وجاهة تحلقوا ترابيزة رخامية وقالوا: «عندك كوتشينه ياحاج؟ قلت: «عندى». قالوا: «هاتها». وكانت جديدة فقالوا فى نفس واحد: «فل» ومال أحدهم على قائلا فى بساطة: «شوف ياعم الحاج.. حنلعب عشرتين ثلاثة ـ وغمز بعينه غمزة ذات معنى ـ ولك ياعم على كل

دور عشرين قرشا أجر ترابيزة عندك مانع؟». قلت: «لا»، فانبرى يفنط الورق فى حماس ويطلب المشاريب.

احلوت اللعبة يابوى، ساعتان أو ثلاث فى أواخر الليل بمقام شغل جمعية بحالها، حتى صرت يابوى من فضل الله وكرمه أرسل لأمى كل أسبوع حوالة وأدخر حوالة. أهملت أمر القهوة والشاى وطال ابتعادى عن جحيم النصبة اذ لابد أن أكون جالسا بجوار اللعب أراقب الأدوار وأقبضها. هات واحد شاى ياعم حسن.. قم انت عدم المؤاخذة وأعمل لنفسك شايا ثقيلا كيفما تهوى. الشعب المصرى شعب مهاود يابوى، كالبوصة الخيزران تطويها دائرة فى أصبعيك فتتخيل أنه ـ أقصد أنها ـ ملك يديك، فاذا ما غفل أصبعك برهة وجيزة اندفع الطرف وارتدت البوصة عصا مستقيمة كأن شيئا لم يكن. هكذا كان يقول عمى الضرير لجلاسه فى مندرتنا، وكلما دعكتنى الحياة فى مدينة القاهرة أحسست أننى يجب أن أكون مثل البوصة الخيزران لكى أعيش فى هذه البلدة دون مشاكل ووجع دماغ وكراهية. طب ماقولك يابوى أننى كنت أرسل هذه الكلمة كلمة «قم اعمل لنفسك» إلى رجال محترمين جدا والمفروض أن أقف أمامهم خاشعا مكسور الجناح، كنت أقولها فى تهيب شديد أول الأمر، ثم على هيئة مزاح، ثم بت أطلقها بلهجة أمر غليظ: قم إعمل لنفسك.. فيقوم سعادة البيه ويعمل لنفسه دون غضاضة على رأى عمك الضرير، أى والله يا أبو العم.

تفـرغت لقبض الريالات المنهـالة على كل مـساء من التـاسعـة مسـاء حتى الرابعـة صباحـا. لم يعد يعنينـى راحة أى زبون، بل أصـبحت أجـد لذة فى إهانتهم تزداد نـشوتى منهـا كلما رأيتـهم جميعـا يقابلون إهانتى لهم كأنها أمر طبيـعى! أصبحت أعمل على طرد خمائرهم ابتداء من بعد صلاة العشاء..

غيـر أن الطوبة ليست تقع فى المعطوبة كمـا يقول المثل بل تقع دائما فى السليمة. وهى طوبة تصيبنى دائما كلما جرت النعمة بين يدى. دخل الضـابط علينا فجـأة وخلفـه رجاله، كـان أفنديا وهم كـذلك لكننى عرفت الضـابط من دخلتـه ذات النفخـة الكذابة ومن التفافه حـولى فى ثقة ثم إحاطة رجاله بنا. ليلتها حـملت الترابيزة فوق رأسـى والكوتشينة فى يدى ونقـود القمـار فى جيـبى تقلنا عربة الشرطة الزرقاء إلى قسم مصر القديمة حيث أشبعونا ضربا وتلطيشـا مما يحبه قلبك عدم المؤاخـذة، حرروا لنا محضـر، وبعد أربعة أيام أفرجت النيابة عنا بكفالة عشرة جنيهات لكل واحد. فى اليـوم الذى خرجنا فـيـه اتجهت من فـورى إلى المحل فـفتـحتـه وكنسـته ورششـته بالماء وبخـرته ثم أشعلت النار تحت الـرمالة وجعلت أغسل الأكواب أقصد الكريم مستفتحا بواحد شاى لى. مع حلول المسـاء رزقنى الله بالعشـاء فى الموعد اليـومى المعتـاد جاء الصـحاب الاربـع لا يبدو على وجـوههم أثر لما حـدث بل لايبـدو عليهم أنهم يعـرفوننى أصلا، كـأننا لم نكن سويا فى الحـجز منذ

ساعـات قليلة. سـلام عليكم ياحاج، قلت عليكم الـسلام. أردت أن آكل البـصرة منهم بأن أرد عليـهم فـعلهم، قلت بمجرد جلوسـهم كأنهم أغراب عنى: «تشربوا أيه؟». قالوا كـوتشينة طبعا. استأنفنا اللعب من جديد. ما كادت النعمة تـسرى بين أصابعى حتى كبست علينا الشـرطة مرة أخـرى، فى هذه المرة شمـعوا الدكان بالـشمع الاحمـر. أما نحن فقد دفـعنا كل ما كان مـعنا لأمناء الشرطة ومع ذلك لم ننج من ركوب الصـينية التى يفرزون فوقهـا من يتحرون عنه لمعـرفة إن كان مـن أرباب السوابق أم لا، الحـمد لله كـشفت الصينيـة أننا جميعـا بلا سوابق وأفرجت النيـابة عنا على ذمة أن تطلبنا المحكمة بعد حين.

قلبى شال من المنطقة كلها ياخال، أصـبحت لا أطيقها واسودت الدنيا فى وجهى فقلت فى نفسى ليس لك عيش فى هذه المنطقة يا أبا على! إن الشـمع الأحمـر الذى ربط باب دكـانى فى الأرض هو الإنذار الإلهى الذى يـقـول لى إبحث لك عن باب آخـر فى جـهـة أخرى.

فوالله مـا كذبت خبرا، كـان المعلم شندويلى يفتح مقهـاه عقب صـلاة الفجـر مـباشـرة ويبـدأ فى رص الكراسى ورش الأرض فوجىء بى آتيا من مسكنى أحمل جعبة الورق التى فيها خلقاتى كلها، وكانت منتفخة. صباح الخير يامعلم شندويلى.. صباح النور ياحسن أمسافر ياترى؟ قلت: «حاجة زى كده». قال: «كيف؟ قلت:

«سأقلب عيشى فى عتبة أخرى فى منطقة أخرى غير هذه» قال: «من ورائى ياأبو العم؟». قلت: «يمين الله ما أعرف حتى هذه اللحظة أين ترسو بى المركب ولا فى أى مكان توجد لقمة عيشى قال والخواتم الفضية تتماوج فى كفيه: «عليك بحى الزيتون لا تذهب شمالا أو يمينا». قلت «خير إن شاء الله ما الذى فى حى الزيتون يامعلم شندويلى؟». قال: «تركب أتوبيس نمرة كذا يوصلك إلى محطة باب الحديد تسأل عن قطار كوبرى الليمون يدلونك على محطته تقطع تذكرة من الشباك تركب القطار توصى الكمسارى أن ينزلك فى محطة الزيتون! تنزل فى المحطة تنزل الرصيف عائدا إلى الوراء حتى المزلقان! تجد قهوة المعلم ظريف! أسأل فيها عن المعلم أبو القاسم شعيب تجد ألف من يوصلك اليه! إنه مقاول قد الدنيا وكل بلدياتك يتوجهون إليه مباشرة وإن شاء الله سيكتب لك الله لقمة عيش عنده! فعنده أنواع شغل من الفواعلية إلى كل ما تريد وما تتخيل! يعنى لابد أن يجد لك شغلا على قدك بالضبط». قلت: «ابن أصل صحيح والله يامعلم شندويلى! من الآن أى جواب يجىء بأسمى احفظه عندك حتى أعود». قال مشوحا: «ولماذا أحفظه؟ سأضعه فى مظروف جديد وأرسله اليك طرف المعلم أبو القاسم شعيب». قلت: «على بركة الله». عانقته وبكيت فبكى هو الآخر ومد يده فى جيبه فأسرعت ممسكا بها قائلا: «مستورة والحمد لله»، ثم تركته ومضيت.

العدد ثلاثة

الأولة-عرسان وعرايس

ما أن وقع بصرى على باب الحديد حتى هاج صدرى من سبعة أركان. ما أدرى الا وأنا أقطع تذكرة إلى الصعيد فسبحان الله إنها إرادته..

القطار يدب ساعات طويلة يابوى ومخى يضرب يقلب: ما الذى سأفعله فى الصعيد؟ ما الذى أقوله لأمى؟ أفى إجازة أنا أم أن هذه هى الأوبة الأخيرة؟ أستفرح أمى بذلك أم ستقع من طولها؟ سطلنى الهواء فنمت من التعب، وقد هيأ الله لى من يصحينى عند كل محطة لينبهنى..

يابو .. و .. و.. ى .. على الفرحة التى التقانى بها الأهل من أول الحارة حتى دارنا. لم أفرغ من السلامات والأحضان والدعوات حتى صنعت مهرجانا ورائى. أول شىء مفرح التقيته اننا قد صار لنا دار مسقوفة كلها، ذات أبواب وشبابيك جديدة .. فاحسست بكل الامان، وقلت فى نفسى: رعاك الله ياأم فها هى ذى نقودى التى أرسلها لك بالحوالة البريدية قد نفعت الآن وصار

لنا بيت بحق وحقيق استطيع الجلوس فيه واستقبال الرجال بلا حرج!..

ها هى ذى العائلة بربطة المعلم تطل خارجة من باب الدار، أمى تجرى نحوى مهرولة ومن خلفها «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» التى أصبحت عروسنا الرابعة فى زمن غيبتى جاءت هى الأخرى بعزم المشوار نحوى لترتمى فى حضنى، خلفها أخى «محمود» الذى كان رضيعا خرج يحبو على قدميه يحاول أن يصلب حيله يبكى منزعجا من هذا الانقلاب المفاجىء، فكدت والله اتركهم جميعا وأجرى اليه لولا أننى لم أتمكن من نقل خطواتى، حيث تعلقت أمى بحضنى وهات يابوس وضم وبكاء، فى حين تشعلقت «سلمى» برقبتى و«مندوهة» بكتفى أما «سعدية» فوقفت متدللة فى انتظار أن أذهب اليها وأخصها بالسلام والتقبيل وأما «هندية» فتعلقت بذيل جلبابى، وصوت بكاء «حموده» يتصاعد ويطغى على ضجيجنا ولولاه لبقينا فى الشارع هكذا وقتا طويلا..

اللقاء بعد الغيبة حلو يا خال، لا مثيل لحلاوته، ولو ثوقل هذا اللقاء فى كفة بمليون جنيه أكسبها من الغربة فى كفة مقابلة لاخترت اللقاء اذ أننى واللقاء فى كفة واحدة. صار الرجال يأتون للسلام على وصرت أحس بأننى محترم فى وسطهم فشعرت بحلاوة الصعيد وكرهت القاهرة كره العمى، وقال هاتف لعله من طرف الملاك المنوط بتسجيل الحسنات على أحد كتفى: «أنا هنا رجل بحق وحقيق رب أسرة وصاحب بيت يؤمه الزوار أما فى

الغربة فأنت ريشة شريدة فى مهب الرياح». قلبت هذا الصوت فى دماغى فحصته وقلت لأنظرن فى هذا الأمر.

لكننى نظرت ذات لحظة بعد خفوت دوشة مقدمى، وكانت صينية الطعام الكبيرة مفروشة على الطبلية ونحن نتحلقها فى حوش الدار ومن حولنا بط وأوز ودجاج ومعيز وخير كثير، فرأيت أختى «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» قد صرن حريما بمعنى الكلمة، أى قد صرن فى حاجة إلى ظل رجل يحميهن من طمع ذوى النفوس الوسخة. ارتعد قلبى والله ياخال وانتفضت الملعقة فى يدى فتساقطت الشوربة على ثوبى، لمجرد تخيلى لرجل من المطاريد معدوم التربية يقتحم دارنا هذه لخلوها من الرجل ويستبيح كل هذه الكنوز الغالية: أيجيئك قلب يا حسن لتترك هذه الجواهر الملعلطة تنوء بها أمك وحدها؟! «سلمى» و«مندوهة» و«سعدية» و«هندية» يهون عليك فتتركهن شهورا أخرى وربما سنوات؟! كيف ياولد فكرت فى هذا من الأول؟! ألا قاتل الله الفقر. استحليت البقاء لمصلحة رجوليتى قبل مصلحتهن، استرحت لهذا فأكلت بنهم حتى شبعت وانجعصت متكئا على مسند صلب وجعلت أدخن السيجارة باستمتاع شديد وأمى متربعة جوارى، أختى «سلمى» تسوى الشاى على ركية نار متبقية من الكانون، جاءت «سعدية» بصينية الشاى عليها البراض والأكواب الزنك فوضعتها أمامى فأخذت أمى تصب لى الشاى الثقيل فى الكوبة قائلة: «بالهنا والشفا ياخويه»، جعلت أرشف.

مـيلت أمى على أذنى وهمـست: «أرأيت نورك كيف مـلأ الدار؟ قلت مداريا دمـعى الوشيك: «أنت صاحبة كل فـضل يا أم». قالت: «لماذا لم تحدثنـى عن أحوالك ياولدى؟». قلت: «بخـير والله يا أم» الولية لم تصدقنى فى هذه الكلمة! لم تصدق أن حالى بخير، قالت وهى تربت على كتفى: «أعرف أنك تتعب ياقلب أمك!» قلت محاولا اعتقال دموعى: «كـله يهون من أجلك أنت وأخوتى يا أم! فمن لكم غـير الله وغـيرى؟ من أجلكم أقطع مـن لحـمى وأرمى فى حلة الطبـيخ». ربتت على كتـفى مرة أخـرى ومرات ثم بدأت تتـثاءب وانخرطت ترقـينى وتملس على جسـدى بورقة: «رقيـتك من عين الحسود ينذب فيها عـود ومن عين المرة تنقلع بشرشرة ومن عين الراجل تنـقلع بمناجل ومن عــين كل اللى شــافـوك ونـضـروك وماصلوش على الحبيب النبى». وجـاءت أختى «سلمى» بمنقد فيه البخـور يتصاعـد دخانه ذو الرائحة الـزكية وصـارت تلف يديها بالمنقد حـول رأسى حتى صـيرت أنا الآخر أتثـاءب ووضعت أمى الورقة التى كـانت تملس بها على جسـدى فى نار المنقد وتركتـها تحـترق علـى مهل ثم قـالت لى: «شف ياولدى ان كـان القـرش يجيئك فى الغـربه من حلال فالغربه محتـملة إلى حين أما إن كان القرش فيـها من ...». فقاطعـتها مرتشعـا: «أقول لك الحق ياأم؟ أن الحلال فى الغربة غيـر مباح! يا أم لا تندهشى! ان البلد التى كنت فيهـا يسمونها الـقاهرة أى أنها تقهـر الناس من سكانها وكل من يلجئون إليها فى طلب! تقهـرهم على فعل الحرام عينى عينك وفى

كل خطوة! ومن لم يقـدر على فـعل الحـرام تمرغ أنفـه فى الطين وتفضح حـرمتـه!. صدقينـى ياأم أن الحرام الذى كنت تدفـعينى لارتكابه هنا أخف بكثير مـن الحرام الذى يغرق أهل ذلك البلد! ان حرامنا بسيط لن يحاسبنا الله عليه ياأم! سوف يغفره لنا سبحانه على أساس أنه لعب عيال! نحن هنا نفعل الحرام الصـغير فتقشعر أبداننا خوفا من الله من عذاب يوم القيـامة أما أهل القاهرة فإنهم يفعلون الحرام الـكبير دون أن يشعروا أنهم يرتـكبون الحرام! لو قلت لك أنهم يتـفـاخـرون ويتفـشـخرون بـفعل الحـرام تقـولين كذابا!!»..

أخذت أمـى تفك الطرحة وتعـيد لفـها حـول رأسها عـديد من المرات، فتـخيلت كأنها ترمم دمـاغها خـوف الانهيار، قالت كـأنها تختم الصلاة: «على كل حال جئت فى وقتك! الدار هنا محتاجة لك تنتظر دخلتك يديـمهـا الله علينا، وراحت تصب لى الشـاى الدور الثانى. فيـما أرشف الشاى كانت هى شـاردة سارحة فى الملكوت ولكن ظهر على وجهها أنها تدخر لى خبرا أشعر أنه شغلها بل انه هو الذى جـعل مسـألة سـفرى أو بقـائى فى المرتبـة الثانيـة من اهتمامها. بعد برهة مـيلت رأسـها صائحة: «اذهبى ياسلمى ونيمى البط والفراريج.. وأنت يامندوهة قـومى تربى للمعيز وأحبسـيها.. وياسـعدية اذهبى فنـيمى هندية ومـحمـود». لما اطمـأنت إلى أننا صرنا وحدنا مـيلت على قائلة فى غبطة: «صـابر ولد صفوان أبو

عدس تعرفه؟». قلت: «طبعا». قالت فى نبرة مرعوشة بالبهجة: «ما قولك فيه؟». قلت: «لى عشر سنوات لم أراه ياأم». قالت: «إنه معك فى مصر.. هذه البلد التى كنت تحكى عنها الآن .. يسرح فى الشوارع يبيع الفانلات والسراويل والملايات ومعه قرش ومبسوط وكل بضع سنوات يجىء ليشترى قراريط الأرض!». قلت: «ماخبره ياأم». قالت: «يدور على أختك سلمى! يرسل نسوان دارهم ليخطبوها منى! سيعيشها فى مصر ويستتها! سيشترى لها قرطا وكردانا ومشخلعة وخلخالا وينغنغها فى العز!». سرح خيالى برهة فى اللاشىء وما لبثت حتى ارتعش قلبى من الفرح ياخال أو من الخوف لا أعرف، لكننى قلت: «ما رأيك أنت ياأم؟». قالت: «الذى أراه أن الولد شارى! بعث لنا ثلاث مرات وجاء بنفسه مرة! وطلب منى أن أبعث لك جوابا لتحضر أو أعطيه عنوانك فى مصر ليقابلك ففضلت الا يراك فى بلاد الغربة وكنت ساكتب لك جوابا بالمجىء ولكن الله أرسلك! انه سبحانه يعرف بخت البنية ولسوف يعجل بسترها!». قل: «على بركة الله ياأم! على بركة الله! انه طول عمره ولد طيب ابن حلال وجدع». قالت أمى كانها تعلن موافقتها النهائية: «ربنا يكتبها من نصيبه!».

المسألة جاءت سهلة يابوى ومثل العسل، لم تستغرق والله شهرا قرأنا فيه الفاتحة وعقدنا القران وسافرت أختى «سلمى» إلى مصر فى زيطة وزمبليطة كبيرة، وكنت معها وأنا وأمى

وأخواتى حيث أطمانت نفوسنا وتاكدنا أن لابنتنا دارا وعفشا وسترا، وعدنا إلى الصعيد بعد يومين اثنين.

صرفنا القرشين وبقينا كما خلقتنى يارب ترزقنى. سبحان الله يابوى، ففى نفس الشهر جاءنا من يخطب «مندوهة»، هو الآخر ولد يعيش فى مصر منذ بضع سنوات ويشتغل نفس الشغلة ولكن فى وكالة البلح، حيث يجلس بعربة يد صغيرة يصنع منها دكانا متنقلا يتسع بكثرة تصريفه فى البيع اسمه «نصر الأقرع» وأعرفه ولدا أجدع من سابقه، فقلت: «على بركة الله». عقدنا القران فى انتظار أن ينتهى العريس من بناء شقة يتملكها على أرض يضع يده عليها فى منطقة مهجورة خلف صحراء المماليك من جبل المقطم. فى شهر واحد لعلعت فى دارنا الزغاريد مرتين وأضيئت شموع الفرح مرتين وجلس على كرسى الكوشة عروسان مزوقتان إحداهما سافرت والأخرى على وشك السفر.. «عقبال سعدية وهنومة وأمسح لهن جميعا دماء شرفهن وخلاصهن وغائط أولادهن! اللهم اسعدهن! اللهم استر عرضهن! وبلغهن كل أمانيهن! اللهم ارض عنك ياحسن ياولد بطنى!»..

هكذا راحت أمى تبتهل بصوت مخيف راعش، رافعة وجهها نحو السماء باسطة يديها. أخذت والله أحبس دموعى حبسا.

الثانية ـ بصرة بالبنت

قلت لأمى فى لحظة صفاء: «يظهر أنه مكتوب لنا لقمة عيش فى مصر ياأم! ولابد منها!». قالت: «يفعل الله بنا مايشاء فنحن أولاده وهو مسئول عنا! وليس هو سبحانه بالذى يفرط فى المسئولية! حاشا لله ياولدى! لاتكفرنا!». رحت أتفكر فى أمر العودة إلى القاهرة، مخففا وقع الأمر على نفسى بأن الله قد ساعدنى من حيث لا أدرى فخلصنى من نصف المسئولية ولا بأس من الغربة سنين أخرى، فاذا بأمى تقول: «من غد تتوكل على الله ياولدى فتبحث لنا عن رزق نعتمد على الله وعليه مدة سفرك إلى أن يكرمك الله وتبعث لنا بالحوالة». قلت: «فعلا ياأم! صدقت! غدا يحلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام!..

الليل بطوله وأنا مفنجل العينين ياخال، مخى يضرب يقلب، هاتف جوانى يقول لى: قم الآن يامغفل واسرح فى هذه الخلسة قبل خروج المصلين من صلاة الفجر وأنت ونصيبك فالله لن يردك خائبا!! وهاتف لعله من السماء يزعنى قائلا كيف بعد أن صرت رجلا محترما يوقرك الناس تفعل أفاعيل كهذه؟! افرض أن الطوبة

جاءت فى المعطوبة وضبطوك متلبسا فماذا تفعل أمام فضيحة بجلاجل؟! وهاتف ثالث يقول لى تعقل ياحسن فأنت غائب عن الصعيد لك مدة كبيرة وقد صرت كالغريب أعمى ولو كنت بصيرا.. الله أكبر نطق بها صوت المؤذن فدوى من خلفه صوت أمى زاعقا يرج الأرض من شدة ما فيه من ترج واستعطاف: «الله أعظم والعزة لله.. لا اله الا الله محمد رسول الله». فتأكد لى والله يابوى أن الله لابد قد تأثر من ضرعة أمى هذه بصوتها هذا الذى يفتت الحجر. تقول كافر لو قلت لك أننى قد رأيت الذهول ينشق فى دماغى فجأة بشرخ سرعان ما اتسع وبرزت خلاله دموع تتساقط من عين مجهولة فى العلو على خد يشبه سحب السماء الصافية!..

سحبت جلبابى الكشمير فارتديته ومضيت نحو الباب. تقلبت أمى، قالت: «رايح فين ياحسن؟». قلت: «أصلى الفجر ياأم». قالت كأنها قد أحست أن صلاة الفجر هذه مجرد اسم لمشوار آخر أنوى القيام به: «الله معك ياولدى! ادع لنا بالستر!». قلت: «يحصل باذن الله»، وخرجت، فقامت هى وأغلقت الباب من ورائى بالترباس.

شققت طريقى إلى المسجد الذى لم أكن دخلته فى حياتى من قبل رغم أنه على مبعدة ذراعين من دارنا. خلعت صرمتى القديمة ودخلت فتوضأت واندسست بين صفوف المصلين فجاءتنى راحة كبيرة، هبط الغليان فى صدرى، تيقنت من أننى قد وكلت الله حقا

فى التصرف فى أمرى. الله وكيل يابوى ما فى ذلك شك أبدا. فوانحن نختتم الصلاة لاحظت أن رجلا محترما يطيل النظر إلى من تحت لتحت يتأملنى حتى أوشكت على الخوف منه، فلما سبق من يجاورنى إلى الانصراف تزحزح هو جوارى حتى حاذانى ومد لى راحة يده قائلا: حرما، فلامستها براحتى قائلا: جمعا ان شاء الله، وقبلت راحة يدى. قال الرجل: «ألست حسن ولد أبو ضب؟». قلت: «صدقت». قال: «فكيف لا تعرفنى ياولد؟». قلت: «العتب على النظر». قال: «أنا الحاج دعدور صاحب الجناين». صحت قائلا: «يه.. يه.. يه.. أبى كان يخفر لك ماكينة المياه». قال: «والجناين كلها.. رحمه الله كان شديد الحب للعمل». قلت: «خلف لك طيلة العمر.. لقد كنت أيامها طفلا صغيرا فاعذرنى». خرجنا معا من المسجد وقد بدأت أنتشى لظهور شدة الشبه بينى وبين أبى رحمه الله. كلمة منى وكلمة منه، أنت فين وأخبار الشغل ايه، وحمد الله على السلامة ومبروك ما عملتوا. لم نكد نصل إلى نهاية الشارع حتى كنا قد اتفقنا على أن أخفر له الجناين لموسم العنب فى مقابل ثلاث تلاليس من الذرة العويجى، خلاف كسوة وأكل وشرب لمدة ثلاثة أشهر. بالصلاة على النبى طلعنا من المسجد على الجناين فتسلمتها وتممت عليها وعلى المكان الذى سأبيت فيه وفهمنى أن من بين عملى إلى جانب الخفارة أن أجلس أمام الجناين بفرش كبير يضم أقفاص مملوءة بالعنب الفرط المطلوب بيعه وأكله فورا قبل فساده.

الجناين قديمة، لكن المبانى زحفت عليها حتى باتت الجناين كأنها فى وسط البلد. قصادها مباشرة دار صغيرة محندقة فيها فتاة جميلة تقول للقمر قم لأجلس مطرحك، ويقول لى قم فلا تجلس أبدا. ذهبت بعقلى ياخال، تقول سحرتنى! برجلتنى! لخبطت غزلى! أنستنى الخفارة وكل شىء! الملعونة بنت الملعون تقف أمامى تتركنى أبصبص لها فاعلا بعينى الأفاعيل! ولربما ينبهنى المارة إلى أن المعيز والدواب الفائتة قد حودت على أقفاص العنب ونزلت فيه أكلا على راحتها فيما أنا المنسحر مسمر فى مواجهة الفتاة اللعوب ذات الوجه الوردى والبدن المتلعبط كالبلطية تحت ثوبها الواسع! كانت تتعمد برجلتى واللعب بمخى إذ هى تكثر من المرواح والمجيء على الدوام تتقصع تتلوى تشد كل العروق فى مفاصلى، فأروح أنادى على العنب واضعاً فيه كل الصفات الحميدة أبثه لواعجى وأشواقى أعتب عليه تعذيبه لى وثقله على وتأريقى فى انصاص الليالى.

المضروبة لم تهدأ. فوجئت بها ذات عصرية تدخل على الحاج «دعدور» حاملة قفة كبيرة. ظننت والله أنها دخلت تدس فى حقى لديه وتشكونى، فتسللت وراءها بصنعة لطافة وتلكأت بجوار الحاج دعدور. فاذا بالبنت تطلب من الحاج دعدور أن يبيعها خمسين رطلا من العنب على أن تدخل هى وتنقيه. قال لها الحاج «دعدور» وهو يضع النقود التى أخذها فى محفظته: «ادخلى فانتقى كيف تشائين ولكن هل تجيدين قطف العنب؟ والا انفرط

منك». قالت البنت: «ابعث معى بهذا يقطع لى»، وأشارت إلى، فرقص والله قلبى من الفرح ووقفت أنتظر، فصاح الحاج دعدور: «ادخل معها ياحسن وخذ معك المقص الحامى». قلت فى امتنان شديد: «حاضر ياحاج»، وأشرت إلى الفتاة أن تتبعنى ظللت أمشى داخل الجناين أكثر من ثلاثة كيلو مترات، اختفى الحاج دعدور وصرنا وحدنا لا عين ترقبنا سوى عين الله. توقفت الفتاة عند تكعيبة مثقلة بالطيب الناضج وقالت: «اقطف لى من هنا.. واقطف لى من هنا»، فأشرعت المقص ورحت أنتقى من التكعيبة أطايب العناقيد فأقطفها بحكمة وأرصها فى القفة وهى واقفة ترقبنى وتكتم ابتسامة شقية بين شفتيها. صدقنى ياخال أننى لم أعرف حتى الآن سر هذه الخيبة التى حطت على! لقد كنت أنشال وأنحط فى سبيل أن تحن على بكلمة أو تنفرد بى لحظة فى مكان! فما بال ولد خالك يقف هكذا كاللوح اللطزان بعد أن جاءته الفرصة وصار معها فى خلوة بعيدة!. كل ما أدريه أن سهم الله قد أصابنى فشل حركتى وأعجز لسانى وحول عينى فاندمجت فى قطف العنب ورصه بحماس وجدية، فلما امتلأت القفة امسكت بطرفها وشيلتها، فما استوت القفة على دماغها حتى نظرت لى نظرة فيها الهزء كله والسم كله، فانخفض بصرى إلى الأرض، فاذا هى تلفظها، تلك الكلمة اللعينة التى لم أكن أتوقع أن تنطقها: «... أمك»، ثم دفعتنى بيدها دفعة واحدة تهاويت منها متطوحا أتساند على الهواء. لحقت بها جريا وأنا أصيح: «الله.. الله.. طب حقك على..

تعالى.. تعالى بس»، لكنها لم تلتفت إلى ومضت تتبختر تحت القفة الثقيلة ومضيت أجرجر أذيال خيبتى ولو كان معى مسدس فى تلك اللحظة لأطلقت كل رصاصه على نفسى. من تلك اللحظة انزرعت هذه البنت فى قلبى ولم تفارقه ليلا أو نهارا كأن بينى وبينها ثأرا لابد من تصفيته!.

انتهى موسم العنب يابوى، وأوشكت التلاليس على الانتهاء هى الأخرى. هم يضحك وهم يبكى!! تصور أننى وقد صرت عاجزا عن شراء ورقة دخان لف أفكر فى خطوبة هذه البنت؟! يظهر أننى من لخمتى وصلت متأخرا، الأيام التى مرت لم تكن طويلة، لاتزيد عن جمعة، غبتها فى مشوار أحصل من ورائه لقمة عيش، حيث قد لجأ إلى نفر من المطاريد فى أن أساعدهم على بيع زريبة مسروقة قوامها جاموسة وبقرتان عشار. وفقنا الله بفضله وفضل العبد له فى تسريب البيعة إلى بلد بعيد بسعر مربح للطرفين ولى بطبيعة الحال، أخذت حقى من الطرفين ورجعت عامر الجيب والقلب تداخلنى ثقة فى أننى سأجرؤ على تخطى عتبة دار الصبية لأجلس فى حوشهم طالبا القرب من أبيها، ومكسبى من السريقة المباعة ليس بالذى يمكننى من قراءة الفاتحة وابتياع هدية ثمينة للعروس والوعد بما لذ وطاب لكنه كان مجرد عتبة أتخطاها ولسوف أعود من أجل خاطر عيونها إلى مصر راغما صاغرا وعلى قلبى أحلى من العسل. لبست جلبابى الكشمير واللبدة الجديدة والمركوب الوردى اللون، وزودت علبة دخانى بكيف يزن

أوقية، وذهبت أخطر نحو دارها آملا فى تلقفها وتبليغها أنى قادم لخطوبتها فعليها أن تمهد لى الطريق إلى أبيها. لكننى فى ذلك اليوم لم أصادفها فى الشارع. تلكأت فى كل مكان ظننتها تتواجد فيه، كدت والله أطرق الباب وأنادى عليها بصوت عال وبلا حياء صائحا: افتحى ياحنة ـ ذلك أن اسمها «حنة» ـ بل كدت والله ادفع الباب وأدخل كما فى المواويل قائلا أنا قتيل المحبة..

تنطعت متوقفا جوار باب دارهم تحت شباكهم كأننى انتظر رسولا منهم وكأننى فى نفس الوقت أقف فى شارع الله الذى يحق لكافة الخلق الوقوف فيه. لففت أكثر من خمس سجائر دخنتها فى عجلة وعصبية ونسيان، أذنى قد غادرتنى وتربعت صحن دارهم من الداخل لعلها تلتقط لى من بين الأصوات صوتها فلم يبلغنى طوال وقوفى أى صوت، وعينى منتزعة من مرقدها تحت جبهتى وراحت تمتد فى كل مساحة خالية تبحث عن طيفى فكأنما نظراتى اشعاعات كشاف ترنحه الرياح، فلما لم يعلق بها طيفها انطفأت خزيانه حسيرة. وهكذا أغمضت عينى وأشعلت سيجارة وأخذ دماغى يسترد نفسه ليفكر بهدوء فى الأمر. دهمنى والله احساس مفاجىء بأن الشؤم قد حالفنى اليوم معها! اذ أننى لم اكن أصدق أن تختفى فجأة هكذا يا خال، وهى التى كانت تروح وتجىء فى الدقيقة الواحدة ستين روحة وجيئة وكانت تبقى موجودة فى الشارع كله حتى وهى داخل دارها. جاءنى احساس بأنها الآن لابد أن تكون فى خلوة مع أحد، ففار دمى

فورانا، وأوشكت أجرى فى الخلاء بنبوت أشج به رأس كل من يلقانى. لم يسعفنى الا طفل صغير من أبناء جيرانهم رأيته يلعب بجوارى، لاطفته سرحت به، عرفت منه أن «حنة» انتقلت هى وأمها برفقة أبيها إلى بلدة «أولاد إلياس» المجاورة حيث ستبقى هناك طويلا إلى أن يعود العمدة!..

سبحان الله يابوى. خطر فى بالى أن «حنة» هى إبنة «أبو سكين» الخفير الخصوصى والمرافق للعمدة أينما ذهب. والعمدة له زرع عريض فى النجع القريب منا، يحلو له أن ينقل محل اقامته إلى هناك ليكون ساهرا بحق على رجاله. لما تذكرت ذلك خفت لبرهة ثم حمدت الله أن نزل على سهم الله حين انفردت بها فى الجناين. ثم قلت: ما من بد، فلا بد أن أراها، ولآخذن معى واحدا من صحاب عمرى القديم أو بالاحرى من صحاب أبى ونقصد الكريم إلى دارهم..

فى الصباح بحثت عن أحد يذهب معى فلم أجد. فاغتظت أيما غيظ: فلأذهبن وحدى بنفسى من أجل نفسى ألست رجلا يملأ العين؟ وقد كان.

ادركنى الضحى على الطريق وأنا أتنسم ريح «حنة» وعطرها كلما اقتربت من حدود «أولاد الياس». الى أن امتلات خياشيمى برائحتها النفاذة، فتلفت حولى، فاذا بـ «أبو سكين» الخفير يخرج من غيط القطن المجاور لى، والعمدة يتحنجل أمامه متقافزا فوق

الزراريق منفوخا يكاد الكبر يفرتكه، وكان الشر باديا عليه حين أرسل نظرة سيئة إلى جوارى فنظرت فاذا بولد صغير قد سرق ملء حجره قطنا وها هو ذا يقف مشلولا بسريقته يتلبسه الذعر. انقض عليه العمدة فأمسكه من كتفه وهزه بعنف ولعن آباء الذين خلفوه، رمى به إلى «أبو سكين» الخفير. ضربه «أبو سكين» بالكف على وجهه ونزع ما معه من قطن ثم تركه نظرت فى الولد لعرفته وعرفنى، انه ولد غلبان وعلى قد حاله ولكن يكفيه صيتا أن «عبد الرحمن ملك الموت» عمه لزم..

عم الولد اسمه «عبد الرحمن» على اسم سيدنا عبد الرحمن عزرائيل الذى يقبض الأرواح بأمر من الله جلت قدرته. ولأن عبد الرحمن كان قويا كحصان فتى عملاقا كمئذنة ضخما كفيل شرسا كحوت فانه كان اذا ضرب واحدا براحة يده فقل عليه يارحمن يارحيم فما بالك لو ضربه ضربا حقيقيا؟ اذا نزل فى عركة فلن يجرؤ مخلوق مهما كان جعيصا أن يقف قبالته. كان منظره يفض الخناقة فى عزها، يكفى أن يعلن انحيازه - ولو بكلمة - لأى طرف، فعلى الطرف الآخر أن يجمع رجاله وحطام خسائره ويفضها. «عبد الرحمن ملك الموت» كان جبارا مكارا خبيثا غبيا، يبيع نفسه بيعا وعلى المكشوف، ياويلك لو خلفت معه اتفاقا تم بينكما باللسان لن يجدك أهلك ذات لحظة بكل بساطة، واذا كانت الحكومة شاطرة تجىء باى أثر لأى جريمة. وقد عجبت والله يابوى كيف نسى «أبو سكين» كل هذا فى هذه اللحظة؟! كيف

تهور وضرب الولد على وجهه بقسوة؟! قلت فى عقل بالى: حقا أن الخادم المذعور من سطوة سيده يبقى سلاحا أعمى فى يد سيده. عذرت الرجل لما رأيت سحابة خوف وندم تمر على وجهه، وقلت: ربنا يستر.

ألهمنى الله بكلمتين طيبتين هدأت بهما العمدة وانتهزت الفرصة فسلمت عليه وعلى الخفير فكرتهما بأعمامى الفقهاء ومضيت خلفهما حتى ماكينة مياه العمدة تحت مجموعة متكافئة من أشجار التوت والجميز والصفصاف والكافور، حيث جىء بكرسى من حظيرة منزوية جلس فوقه العمدة، واقعى الخفير «أبو سكين» تحت قدمى العمدة على الأرض. رميت السلام وشرعت أنصرف فقال العمدة على سبيل المجاملة: «أقعد أشرب الشاى ياأبو العم». قلت فى امتنان: «تشكر ياعمده كلك واجب». وقال «أبو سكين» فى ود صادق: «استرح ياأبو العم فالطريق طويل قلت: «أبو الله حق الله»، ثم اقعيت بجوار الخفير تحت قدمى العمدة منكسا رأسى فى الأرض صامتا. صرت كالغريق فى بحر ياخال، عقلى يقول لى تكلم ياعبيط هذه فرصتك جاءت لحد عندك ومن حسن حظك أن العمدة حاضر ومحضره قد يجىء خيرا لك. لكن عقلى يرجع فيقول لى اعقل ياولد! فضك من شغل الحب والغرام ولعب العيال! أمعك شىء حتى تتشملل وتجىء لتخطب! وابنة أبو سكين الذى يستطيع بقربه من العمدة أن يضرك

ويمشيك على هواه؟! وعلى فرض أنه وافق فمن يضمن لك أن ظروفك ستعينك على تنفيذ ما تتفق عليه مع الرجال؟ أحمد الله أنك لم تتكلم ولم يصدر عنك شىء يفضح صغر عقلك!..

لحظتها ياخال، زحف أمام عينى المنكستين طيف على شكل ظل ملأ الدنيا برائحة اللقاح والبذور ورائحة الحنطة! فى أسفل ظل كعبين مستديرين كالريال الفضة يتسحبان على الأرض ويختفيان مع ظل الطيف، الا والعمدة يقول: «كتر خيرك ياحنة» انتفضت كالطفل الصغير يسمع زمارة بائع الحلوى، ورميت بعينى فى كل اتجاه لعلنى أراها، لكنها كانت قد اختفت. خفت أن أكون فضحت نفسى فنكست رأسى من جديد فاصطدمت عينى بصينية الشاى النحاسية عليها كوبات الشاى..

يمين بالله ياخال ماكدت أضع كوبة الشاى على شفتى حتى سمعت دبيبا عفيا فوق الارض أرجف الكوبة بين اصبعى، فرفعت رأسى، فتلبسنى الذعر فى الحال ياخال، اذ رأيت «عبد الرحمن ملك الموت» مقبلا يمسك بنبوته الشهير يجر خلفه الولد الذى انضرب. الناس فى بلدتنا اذا رأوا «عبد الرحمن ملك الموت» ماشيا بنبوته أيقنوا أن طلعته لن تخيب أبدا ولابد أن تسفر عن قتيلين أو ثلاثة فى لمح البصر!..

دخل «عبد الرحمن ملك الموت» نحونا فكأن الدنيا قد غيمت قال فى أريحية وبكل ود وطيبة: «السلام عليكم ياعمدة»، ثم أقعى

بجـوارنا، ونظر لولد أخيـه المضـروب قائلا بابتـسامـة تشجـيع: «شوف يـاولد من فى هؤلاء ضربك» وأشـار نحونا. كـيف تم كل ذلك فى لمح البصر ياخال؟ يعلم الله كيف ولكننى فوجئت بنفر من ولد أخ «عـبد الرحـمن ملك الموت» قد صـاروا واقـفين بالنبـابيت حولنا من كل جـهة. أشار الولد الصـغير إلى «أبو سكين» الخفـير وكانت البـندقية الميـرى لا تزال معلقـة فى كتـفه، فإذا بالنـبابيت تنهال عليه كالمطر ياخال. فلفص الخفير وانطلق يجرى فى الطريق والولدان يجـرون خلفه يلاحـقونه بالـنبابيت كلمـا طالوه، إلى أن سبـقهم بمسـافة واسـتدار رافعـا البندقية فى وجـوههم ثم أطلق عليـهم الرصاص فأوقع بـثلاثتهم عـلى الأرض قتلى غارقـين فى دمائهم.

«عبـد الرحمن ملك الموت» رأى جثث ولد أخـوته مجندلين على الطريق فانتفض واقفا يبغى اللحاق بالخـفير، فإذا بالعمدة ـ وكان هو الآخر غبيا كبغل استرالى ـ يطبق فى «عبد الرحمن ملك الموت» يطوقه بذراعيه بكل قوته فصارا يهزان بعضـهما كجبلين ملتحمين والخفـير واقف منـهما علـى مقربـة لا يعرف ماذا يـفعل، العـمدة يصيح به: «اقتله! اقتله هو الآخر ياعبيط». وكان «عبد الرحمن ملك الموت» قـد بهدل العـمـدة وأوشك يمرمغ بـه الأرض، وكل منهمـا يدور بالآخر فى دوامـة، والخفـير يصوب مـاسورة البندقـية فى جنب «عبد الرحمن ملك الموت» ويضرب، فـتخرج الرصاصات من

الضلع الآخر مخـترقة صدره بالعرض. وهنا تركه العـمدة فوقع، لكنه نهض فى الحال، اندفع يجرى خلف الخـفير والدم ينزف من جنبيه ولا أعرف كيف التـقط نبوته ثانية وأغلب الظن أن نبوته هو الذى طار اليه، وكان العمدة يجرى خلفـه ليحول بينه وبين الخفير الذى تعـثر فـوقع فى المصرف. بحـركة بهلوانيـة استـدار «عبـد الرحمن ملك الموت» مرتدا فى قفـزة واحدة حيث هوى نبوته على رأس العمدة بضـربة واحدة سقط العمدة بعـدها وشظايا من مخه تتناثر فى الهـواء كزبل الحمـام. ثم أن «عبد الرحـمن ملك الموت» قفز قفزة أخـرى نحو المصرف مباغتا الخفـير بضربة أخرى فوق أذنه، وكـان لحظتهـا يحاول تخليص البندقـية من طين المـصرف فسـقط وأياها فى الطين جثـة هامدة، فوقـها سقـطت جثة «عـبد الرحـمن ملك الموت» هامـدة، أمـا نبـوته فكان من عـزم الضـربة وانفكاك اليد قد طار بعيدا ليصـيب العمدة بضربة أخرى ـ عفوية هذه المرة ـ فى صدره!!..

واه يابو.. و.. ى.. واه، ست جـثث مـرمـيـة على الطريق وفى المصرف الراكد تنتظر قدوم النيابة أربعة أيام بخمس ليال تضرب فيـها الشمس حـتى تعفنت. يمـين الله ياخال ان الرائحـة الكريهة بقيت كـاتمة على أنفاسنا جمـيعا سنيـن طويلة، والخوف كله بات ساكنا عند ماكـينة مياه العمـدة وعفاريت القتلى تتـسلق الأشجار والحظيرة تكيد للبشر ليل نهارا..

اندفنت الجثث، والنيابة التى يهمها التصريح بدفن الجثث لم يعد يهمها الإمساك بأحد ممن يعتصمون بالجبل، كأنما الجبل يخرج عن حدود مسئوليتها، والواقع يابوى أنه يخرج عن حدود طاقتها وقوتها. وكان العمدة قد تكفل بتهريب زوج الخفير وابنته. أهل الموتى دفنوا موتاهم فى صمت كأن شيئا لم يكن، حتى بدا كأنهم سلموا أمرهم إلى الله بعد سقوط زعيمهم. سبحان الله ياخال، على خطورة هذا الحادث الكبير فإنه مر كما يمر أى حادث، نسيه الناس فى بحر أيام قليلة!..

ما أدرى إلا والعمدة الجديد ابن عمه يبعث خفيرا محترما فى طلبى أتيت بقلبى من بين ساقى وقلت لابد أنه ينوى أن يستشهد بى ويجرجرنى فى محاكم ونيابات وأنا جسدى متلبس بها من حاله فلا يطيق منظرها. فكرت أننى لابد لى من الهرب يابوى! أيضيق بى الصعيد هو الآخر واضطر للهروب منه؟! لم يعد امامى أنا الآخر سوى الجبل أعتصم به! ولكن هل أنا قد الجبل؟ طب وأمى وأخواتى يابوى من يرعاهم؟! وما لزوم الجبل؟ ومالزوم الهرب؟! الصراحة حلوة! الكلمة الطيبة أحسن! أحلى! كلمة حاضر ليس أريح منها! قل حاضر لمن يلح عليك وأفعل ما يحلو لك بعدها فى السر أو فى العلن فلن يعترض أحد!!..

بحلقت فى عينى الخفير فلم أجد فيهما عكارة تشى بأن فى الأمر ضررا، فتوكلت على الله وذهبت معه. خير ياعمده؟.

لدهشتى سلم على يدا بيد وقال: «اجلس»

فاقعيت على الأرض بجوار الكراسى الخالية..

قال: «ياحسن ياأبو ضب»..

قلت: «نعم ياحضرة العمده؟»..

قال: «ما بقى فيك من لبن أمك؟!»..

قلت: «كله بعون الله ياعمدة»..

قال: «أعرف والا مابعثت لك!»..

صار قلبى كالمشبوك فى خيط مطاط يلعب به صبى. لكننى استطعت أن أقول: «ملك يمينك ياعمده»..

قال: «بحثت فى البلدة كلها عمن يكون قد بقى فى بدنه شىء من لبن أمه فلم أجد فبعثت لك.. هات شايا ياخفير»..

قلت لنفسى أهلا وسهلا، وتوقعت أن يكلفنى بقتل أحد الأشقياء، وبدأت افكر فى حيلة اخرج بها من المزنق. دخل الخفير بالشاى فى الحال، للعمدة ولى..

وقال العمدة وهو يشفط: «شف ياحسن.. الحكاية وما فيها أننى أبحث عمن يخفر ماكينة المياه طول الموسم.. وكل من عرضت عليه الأمر يخاف من عفاريت الجثث!!»..

قلت باسما وقد هان الأمر على نفسى: «معهم حق ياعمده فماكينة المياه مسكونة». قهقه العمدة ضاحكا وقال مشوحا فى

وجهى: «عـفاريت إيه يارجل! أنت رجل ميـت القلب وأبوك أحسن من خفر المكن.. اسـمع.. لسوف أجعلك مبـسوطا على الآخر طوال الثلاثة أشهر مدة الموسم»..

فى هذه اللحظة يابوى، الله وكيل يابوى، طقت الفكرة فى دماغى لا أعرف كيف! قلت له: «رقبتى فداؤك ياعمده لكن لى طلب واحد فقط لو نفذته لى..». فهز رأسه فى قبول حسن وقال مشجعا: «قل عليه». قلت: «أريد أن أتزوج حنه بنت أبو سكين»..

انقلب وجهه فى الحال يابوى، وظهر عليه الغضب الكبير حتى خلت أنه سيرفسنى فى وجهى بقدمه، إلا أنه تلطف فى الحال قائلا « زواج ماذا يابو العم؟! نحن فى جناز! هل هذا وقته بذمتك؟!». خجلت من نفسى والله ياخال، ومادت بى الأرض، فقلت: «معك حق ياعمده! كان يجب أن أميز!». قال: «سأعطيك فى الثلاثة الأشهر ثمانية تلاليس من الذرة!»..

ثمانية تلاليس يابوى، كمية كبيرة والله يابو العم، أربع وستون كيلة تستر جوعنا وعرينا زمنا طويلا، فقلت: «موافق ياعمده! وربنا معى بإذن الله!». نادى على خفيره أن يرسل فى أعقابى أربعة تلاليس من الذرة العويجى إلى دارنا مقدم أجر أحصل على باقيها قرب انتهاء الموسم.

الثالثة ـ عصف الريح

الليالى طويلة ياخال، والشجر أشباح مقيمة تضاعف من عمق السواد الكاحل، وقلبى واقف بين جنبى ياخال، فلا أرى الا شبح «حنة» محفوفا بعفريت عبد الرحمن ملك الموت الذى يتمها فى ضربة متهورة غشيمة، أهو الشؤم أم قلة البخت؟ أم أنه موعظة من الله يسوقها لى كى أتعظ وأصرف نظرى عن «حنة»؟! وهل الأمر بيدى يابوى؟! لو كان غيرى فى مكانى لضرب هذه البنت بالصرمة القديمة ورفض الزواج منها، لقال أنها سهلة المنال ترمى نفسها تحت أقدام من يرغبها وليس بالضرورة أن ترغبه!! عقلى يقول لى هذا الكلام دائما، وأراد عليه مصدقاً له، مع ذلك ما أن تخطر «حنة» على بالى فجأة حتى ينتفض قلبى كعصفور معلق فى خيط من المطاط. تقول عنى كاذبا مجنونا لو قلت لك أنى دخلت الحظيرة التى كانت تعيش فيها «حنة» قبل الحادث فتنسمت رائحتها قوية نفاذة مريعة ياخال. قل عنى ما يحلو لك لكننى لم يكن يهنأ لى نوم إلا فوق مصطبة تخيلت أنها كانت تبيت فوقها!!

انتهى الموسم على خير وبركة، ورزقنى الله بحفنة جنيهات بعت بها سواقط من زرع العمدة، وعمرت الدار بخزين يكفيها شهورا، وعمر جيبى بمدد يكفينى للسفر..

رأت أمى أن تعد لى لقمة طرية آكلها فى الطريق أو بعد وصولى، ما كان لها لزوم ولكن هل أقدر أن أقول هذا لأمى؟!.. بالأمس أجلت سفرى حتى تغسل لى ثيابى، واليوم تؤجله حتى تصنع لى لقمة وغدا يعلم الله أى سبب جديد يطرأ عليها فتؤجل السفر من أجله!!.

قمت أمشى فى البلدة قليلا أملأ منها خواطرى قبل أن أودعها. كنا فى الضحى والجو كئيب ملىء بالرياح المتربة رأيت جماعة من الرجال يجلسون على مصطبة بجوار دكان الخياط. سلام عليكم، عليكم السلام.. جلست جوارهم. كان الراديو يرفع عقيرته بالغناء الحماسى، وكل الاغانى تقول: مصر مصر مصر مصر وكلاما كثيرا غريبا. قلت: «ما هذه الاغنيات؟». قالوا: «مالها؟». قلت: «فيها جر شكل كبير». قالوا: «سمعنا الراديو منذ برهة يقول أن ثلاث دول كبيرة هى فرنسا وبريطانيا ومن تسمى باسرائيل قد هجموا على مدينة بور سعيد ـ الباسلة ـ وأن الله نصر أبو عبد الناصر عليهم». وكان صوت «أم كلثوم» يغنى قائلا: صوت السلام هو اللى كان والليل حكم!.. قلت: «يه. يه.. يه مصر اذن بخير يعنى أم لا؟». قالوا: «العلم عند الله». قلت: «مسافر أنا اليها فى

الغد». قالوا: «سلم لنا على ولد ابو عبد الناصر».. قلت كأننى سأفعل: «يوصل». ثم خفت يابوى، قلت لابد أن طيبة قلب أمى هى التى عطلتنى من أجل فائدة لى! فهل من المعقول أن ينتصر «عبد الناصر» على ثلاث دول؟! أما اسرائيل هذه فلم أكن سمعت عنها من قبل يابوى. وأما فرنسا وبريطانيا فأعرف أننا كنا واقعين تحت احتلالهم حتى مجىء «أبو عبد الناصر» الجدع الأمير! هو صحيح جدع وأمير وبطل، ولكن هل من المعقول أن يحقق مثل هذه المعجزات يابوى؟!.

عصفت الريح فجأة وأهالت علينا تلاليس تراب، فأحسست والله أن الجو ينذر بالخطر. مر اثنان من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» يضعان يديهما فى فتحتى الجلابيه، وكانا مسرعين يبدو عليهما الاضطراب والبرجله، لم يلقيا السلام علينا، فنظرنا إلى بعضنا وقلنا: «استر يارب» ذلك أن مشيتهم ذكرتنا بمشية «عبد الرحمن ملك الموت». بعدها بقليل فات علينا اثنان آخران من نفس العائلة يمشيان نفس المشية الملهوجة ولكن فى الاتجاه العكسى. فى أعقابهما فاتت امرأتان تتدثران فى ملسين أسودين ولا يبين من جسديهما أى شىء، وكان يبدو من شكلهما أنهما غريبتان عن البلدة.

تابعناهما بعيوننا حتى اختفتا فى حودة الشارع. كفت الاغنيات فجأة وخرج من الراديو صوت «عبد الناصر» بذات نفسه يهدر

بكلام كثير حلو فهمت منه أنه يوجد فى مدينة السويس قناة حفرها آباؤنا وكانت فرنسا تضع يدها عليها وتبيع المرور فيها لخلق الله بأموال طائلة وأن «أبو عبد الناصر» الجبار أخذ منهم هذه القناة قائلا: جحا أولى بلحم توره. فصفقت والله لهذا الكلام ولما فهمونى معناه على الحقيقة تفجرت صياحا مع هدير السامعين، هتفت: يحميك!.. يحميك ياأبو عبد الناصر ياجمال..

إلا وصياح شديد يجىء من يميننا ويقترب، إذ نحن كلنا وقوف ننتظر. وإذا برجل يجرجر جسد امرأة على الأرض وخلفه بضع رجال وأطفال يصيحون ويزآطون ويجعرون فلما اقتربوا منا تبين لنا أن المرأة المجرجرة على الأرض هى احدى المرأتين اللتين مرتا علينا من قبل، وأن الرجل الذى يجرجرها هو احد رجال عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» الذى مر علينا من قبل، وكان يصيح من أعماقه: قل أنا امرأة يا ابن الكلب. والله ياخال لم تمض دقيقة حتى امتلأ الشارع عن آخره بناس من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» وأقاربه، راح كل منهم ينزع عن هذه المرأة شيئا حتى عروها كما ولدتها أمها فإذا بالصياح يرتفع ساخرا مستنكرا واذا بنا ننظر رجلا كامل الرجرلة واذا هو «عجرود» ابن العمدة كان متنكرا ليهرب من البلدة قبل أن يفكر ولد عم «عبد الرحمن ملك الموت» فى اصطياده، ولم يكن يعرف أنه خرج من جحر الدار إلى المصيدة نفسها. و.. يازين صلى!!..

مجزرة يابوى؟ جهنم الحمراء انطلقت؟ فئوس وكريكات وبلط وسكاكين ومخارط ومناشير، غير العصى والنبابيت.. كل ذلك راح ينهال فوق جسد «عجرود» ابن العمدة الوحيد ورفيقه الذى كان متنكرا فى رحلة الهرب.! الناس يابوى رأت المنظر هكذا فأخذت تنصرف من كثرة البشاعة، حيث سقط جسد «عجرود» المسكين على الأرض رأسه مفتت كرأس الذبيحة. جاءت نساء من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» يجرين نحو الجثة، ملن عليها ورحن يشربن من دمها كما يشربن عصير القصب، ويقمن يمسحن الدم عن شفاههن، ونساء أخريات مررن فوق الجثة سبع مرات، ثم انهالت السكاكين والبلط تقطع فى لحم عجرود ورفيقه وترمى للكلاب التى تكاثرت وانسعرت. ووالله لم يتبق من جثتهما سوى بقايا عظام وأظافر، وحصيرة دم راحت الكلاب المستضعفة تلعقها فى سأم!!..

كل ذلك ونحن جلوس فى أماكننا يابوى. فى العصر جاءت عسكر الحكومة واستجوبت من لقيته من الناس، فلم يفتح أحد فمه بكلمة، فانصرف العسكر دون أن يقبضوا على أحد مروا فى طريق عودتهم بدار تنبعث منها الزغاريد العالية والطبول والدفوف الراقصة، ولو سألوا عن الدار التى ينبعث منها هذا الفرح لقيل لهم أنها دار «عبد الرحمن ملك الموت»، ولو فكروا فى الفرجة على هذا الفرح لرأوا صيوان العزاء قد اقيم وبدأ الرجال

يرشون الأرض ويرصون الكراسى ويعدون الميكروفون.. فاليوم فقط يحق لهم تقبل العزاء فى فقيدهم.

امتلأ جو البلدة بالغبار المسود، ولم تتمكن أمى من صنع لقمة طرية أو فعل شىء بعد الذى رأيناه رؤية العين فى قلب شارعنا فى قلب الظهيرة والشمس مخترقة سقف السماء. وجاء خبر الحرب فى بور سعيد فكسر مقاديفى يابوى وصور لى مصر القاهرة كأنها ماسورة مدفع كبير قل أن يدى تطاولت على أجرة السكة، أخذت منها ثمن ورقة دخان لف، وفى ثانى يوم ورقة ثانية، وثالثة فى ثالث يوم. آخر قرش اشتريت به سيجارتين مكن فرطتهما ولففت خمس سجائر رفيعة وجلست فى حوش دارنا أفكر فى «حنة». قلبى هذا العلق اللعين يريد أن يربطنى بمصيرها! لا يريد أن يبرح البلدة ويتركها أجد نفسى جالساً فى عز الليل وحدى أقول لنفسى ما الذى ستفعله هذه المسكينة الغلبانة التى لم يعد لها أحد فى هذه البلدة؟! هل يعوضها العمدة المنكوب فى أعز مخلوقين لديه؟! هل يستطيع أى عوض أن ينسيها بشاعة ما حدث لأبيها؟ صدقت ياخال اذا قلت لك أننى الوحيد الذى يستطيع أن ينسيها لو أخذتها معى إلى مصر بعيداً بعيداً وأريتها من فنون العشق والجنون الكامن فى مصر ماينسيها أهلها وحتى اسمها. آه - فقط لو أراها!!.

الأيام تجر بعضها ومزاجى معكر يابوى، ليس فى جيبى سيجارة ودمى السخن يمسكنى عن طلبها من أى خسيس. دخل

علينا شهر رمضان، أهلا وسهلا شهر مبارك، هو ونصيبه. أول يوم كنت جالسا ساعة العصر أفكر فى ما عسى أن تكون أمى قد أعدته لنا فى الإفطار فى شهر رمضان عند الإفطار تخرج الصوانى من دور كل فروع العائلة لتمتد فى المندرة، حيث يتجمع رجال العائلة ويستقدمون معهم من يلقونه فى الطريق أو من يعزمونه من قبل أو من يشدونه عنوة للافطار من أبناء السبيل. دارنا هى آخر دار فى الصف منعزلة قليلا لكنها - شأن بقية دور العائلة - متصلة بالمندرة، فاذا كنت جالسا فى مندرتنا ساعة الافطار تلاحظ أن للمندرة بابا داخليا يفتح على دهليز مستطيل كأنه شارع داخلى تحفه الجدران وتفتح عليه أبواب الدور على الجنبين..

تخيلت نفسى جالسا فى المندرة بين الرجال أرقب الصينية القادمة من دارنا أتخيل منظرها وما سيكون عليه من تعاسة. توهت نفسى بعيدا عن شارعنا، عامدا متعمدا، حتى أدركنى أذان المغرب فى جامع فى ناحية أخرى من البلد.. فأمسك بى رجل كنت أعرفه من زمن ولم أكن قابلته منذ سافرت إلى المخروبة مصر!. راسه وألف سيف أن أذهب للإفطار معه. ذهبت يابوى، فاذا بالرجل يقدم الصينية أمامى عليها فضلة خيرك أربع فردات من الحمام السمين وسلطانية الشوربة التى لا مثيل لها فى تعمير الدماغ. بالهناء والشفاء أكلنا وشربنا الشاى والذى منه ثم اتكلت على الله مروحا إلى دارنا..

ثانى يوم فى رمضـان عدى على خير هو الآخـر واستقضـيته كلشنكان. ثالث يوم فـات هو الآخر لا أعرف كـيف. رابع يوم كان يوم اثنين وهو يوم سـوق بلدتنا. فى يوم السوق لابد أن تشـتغل الكوانين فى كـافـة الدور حتى دور الغـلابة والأرامل، فـالشحـاذ نفسه لابد أن يستقضى فى هذا اليـوم لحما ويطبخه، والبلدة كلها من أجعص جعـيص لأفقر فقيـر لا تأكل اللحم الا فى يوم السوق هذا اللهم الا بعض الايام المفترجة وهى لحسن الحظ معدودة على الأصابع كل عام، وفيمـا عدا ذلك من أيام فلا أحد يذبح أو ينصب سيبة لحم..

فى الضحى دخلت على أمى: «معك نقود لنشترى لحما ياأم»..

قالت: «لا.. ولا مليم»..

اتكسفت وسكت، ثم خرجت. صليت العصـر وضيعت وقتاعند دكـان الخيـاط، إلا وصاحـبى الذى عـزمنى على الإفطار أول يوم مقدما لى الحـمام يلتقى بى وجها لوجه على غـير انتظار. اندفعت بحمـاس أعزم عليه أن يتـفضل اليوم لـلإفطار عندى، شددت فى العزومـة فاستـنام مرة واحدة ولم يتـرك لى فرصة لـلتراجع، بل مضى جـوارى نحو دارنا. تركته وحـده فى الحوش ودخلت على أمى، وقعت فى عرضها:

- «دبرينى ياأم.. احـفظى لى مـاء وجـهى.. الرجل جـالس فى الحوش بالفعل ولا مفر من تناوله الفطور معنا!»..

لوحت أمى بكفيها فى يأس، قالت فى شفقة:

- «ربى اقطعنـى.. والله ياولدى مـا أحـتكم فى دارى الا على سمن وبيض.. أن شـئت ملأت لكما الـطاسة بيضـا فى السمن مع جبنة قديمة ولفت وفجل وجرجير»..

امسكت بطوق جلبابى استعداد لشـقه من فرط الشعور بالعار قلت وأنا على وشك البكاء:

- «بيض ولفت؟! الرجل يؤكلنى حمامـا.. وأنا أعزمه على بيض ولفت؟! ياللهوان!»..

قالت أمى بكل بساطة:

- «كل واحد على قد حاله ياولدى».

شددت طوقى حـتى تمزق بالفعل مـقدار عقلة أصـبع، وصحت صيحة مكتومة من الغل:

- «اليوم سوق! وكل شحاذ يطبخ اليوم لحما! وأنا أقدم لضيفى بيضا مقليا ولفتا؟! أين أضع وجهى ياأم؟!»..

تحيرت أمى، وفى تسليم بالهزيمة فكت عقدة منديلها المحلاوى الصدىء عن اثـنى عشر قـرشا حلفت بالخـتمـة الشريفـة أنها لا تحتكم من حطام الدنيا سواها كانت تدخرها لأمن ذى خطر. لهفت القروش منها وجريت متشـمما أنفاسى، معى ثمن رطل من اللحم لحمـد الله عليه فـضل وعدل. يممت نحـو السوق فلم أجـد سوى

بقايا عظام وفضلات فروشات الباعة. عدت كاسف البال ياخال. لففت على دور الشارع دارا دارا أسأل صاحبة كل دار: «عندكيش حمام ياخاله؟»..

- «لا والنبى يابنى»..

فعدت إلى الدار أجرر ساقى. جلست بجوار ضيفى كأنى فى محزنة أتلقى العزاء، فتارة يخيل لى أن جلبابى مثقوب من فوق مؤخرتى بالضبط، وتارة يتخيل لى أننى قد تبولت على نفسى فجأة، وتارة ثالثة أتخيل أن ضيفى قد رأى كل شىء وأحس بكل شىء. الأرض راحت ترتفع أمام عينى وتنخفض يابوى، وتلف، فرأيت من مكانى فى الحوش نسوان الدار وقد انتهين من المندرة ووضع المساند وتجهيز الطبالى وطشوت الغسيل والأباريق النحاسية والفوط جوارها وصوانى القلل، والشمس صرفت لونها الاصفر ولبست الأحمر المشتعل وهاهى ذى قد بدأت تتفحم وتذبل جمرتها المتقدة، وأخذ ضيفى يبسمل ويحوقل فى انتظار صلاة المغرب. خلاص يعنى؟ سأقع فى هذه الوحلة يارب!.. تخيلت نفسى ساحبا ضيفى داخلا به المندرة على الرجال والحيرة تغرقنى تلخمنى لا أعرف من شدة الحرج على أى طبلية أحود لنتطفل عليها معا متجاهلين طبليتى!!.. فكادت الدموع تفر من عينى، وسمعت صوت الطشطشة فتيقنت أن أمى قد سيحت السمن وطقشت البيض وقلبته فيه. شىء إلهى ذكرنى بابنة خالتى «نميسة» وهى امرأة تحبنى وتعزنى كثيرا لأننى أحمل شبها من

أمها المرحومة، وهى متزوجة فى قبلى البلد وكلما رأتنى عزمتنى على الإفطار وهددتنى بالغضب إن لم ألب دعوتها وكنت - تهربا من إلحاحها - قد حلفت لها لأحضر ذات لحظة طالبا الافطار بنفسى.

الله وكيل! ما أن تذكرتها حتى رأيت ابنتها الصبية مقبلة علينا توسع وربة الباب بردفها وتدخل صائحة: «سالخير ياخالتى». فنهضت مسرعا اليها. كانت تحمل على رأسها سلة كبيرة من البوص مغطاة بشاش، ميلت نحوى قائلة: «أمى تسلم عليك وتقول لك ما دمت لا تريد أن تجىء لتفطر معنا فافطارك يجىء لحد عندك». وتركت السلة فى يدى وانصرفت. قلت: «ياما انت كريم يارب»، ودخلت أجرى إلى أمى. رفعت الشاش فرأيت حلة كبيرة، فتحتها وجدت فضلة خيرك لحوما وطيورا وأرزا فأخذت السمن المقدوح من يد أمى ودلقته فوق الشوربة وقلت لها: «جهزى الصينية ياأم»، وعدت إلى الحوش وقد أحسست أن قامتى قد انعدلت ياخال، وجرت الدماء فى لحمى الناشف، وقلت لضيفى بكل ثقة: «تفضل معى إلى المندرة»،، ومشينا فى الدهليز المستطيل نحو المندرة أكاد أقول يأرض اشتدى ما فوقك قدى.

فى تلك الليلة ظللت ساهرا حتى شروق الشمس ياخال، غير أنها أشرقت على فى الطريق وأنا متوجه إلى مصر بدون نقود لتذكرة وبدون أى شىء. وكنت واثقا والله ياخال أننى سوف أصل بسلامة الله، كيف.. لا أدرى.

الجهات أربع

الأولة۔فى الليل البهيم

شريط السكة الحديد يخترق بلدتنا يفصل الغرب عن الشرق. الغرب فى بلادنا أقوى من الشرق، لكن الشرق أغنى من الغرب. السبب أن أهل الشرق مجاورون للنيل مباشرة، يزرعون الارض أكثر من زرعة، وهى أجود أرض فى الناحية كلها، طما، باقور، ساحل سليم، المطيعة، أبو تيج، النخيلة، شو ضب، أولاد إلياس، البارد، المعصرة، العصاره، البدارى، كوم المغربى تحت الجبل الشرقى، وغيرها يابوى أرض يحلف الزرع بحياتها، وأهلهم كلهم مبسوطون وعال العال. الدور والباقى على أهل الغرب مثل: صدفة، ادرونكا، الزاوية، المسعودى، الزرابى، المشايعة، الدوير، كوم سفحت، أبو حجر، كوم سعيد، الوعاضل سلامون، الشناينة، النجع، الريانية، البرية، العامرى، العزايزة، الغنايم، دير الجنادلة، كردوس، بنى فيز، القطنه.. بلاد كلها يكثر فيها الفقر كلما كثر عدد الرجال وما أشد ما يكثر يوما بعد يوم، فكل بضع سنوات

تمتلىء البلاد برجـال جدد، بلا عمل ولا أمـلاك ولا أى شىء، فمن أين تأكل يابوى!؟

أراضى الشرق ومـلاكهـا يستخـدمون البعض بـتراب الفلوس أنفـارا وتملية وخـفراء وزرايبية، وبـاقى الرجال يعـيشـون على الخطف والنهب والسرقة والاغتـصاب. شىء فظيع ياخال، لم ينقذ بلادنا كلهـا من جحافل الـصعيـد الزاحفـة سوى بدء السـفر إلى البـلاد العربيـة، حيث هاجـر إلى السـعودية والكويت والامـارات وليبـيا والعراق أعـداد لا حصر لهـا من المتعطلين الذين يشيـبون ليالى الصـعيد ويهزونهـا. كانوا يثيرون الرعب المتـواصل فى عز الظهـر الأحمـر لكنهم ـ صدقنـى ـ كانوا يؤنسـون وحشـة الليل. آلاف المتـعطلين المجـرمين تقـذف بهم البطون الخـصـبة والدمـاء الساخنة فى الصـعيد! بلادنا تحب سيـدنا محمد وتريده يتـباهى بهم يوم القيـامة بحق!. وإن شاء الله يوم تقوم القـيامة الحقيـقية ياخال فسوف تكون فى مصر!! فمنذ طفولتى وأنا متأكد أن الناس ستـأكل بعضهـا بعضا فى يوم قـريب صار على الأبواب! مـثلما حدث ذات يوم فى بلدة «بنى فيز»، حيـث تقاتل رجالها حتى أفنوا بعضهم فناء تاما!!!..

يبدأ مـوسم الخطف حينمـا تكبر الذرة فى الغـيطان. كل واحد يخطف له خطفة واحدة كبيرة يعـيش عليها بقية العام إلى أن يدبر لخطفة جـديدة. تجىء له جواسيـسه من الشرق قـائلة له أن فلان

الفلانـى من ذوى الأملاك سوف يـخرج فى السـاعة الفلانـية فى اليـوم الفـلانى متـوجـها إلـى المكان الفلانـى. لا يقع تحت طائلة الخطف الا الناس المهمـون التخاين، الذين يجىء من ورائهم خـير كثير مضمـون. يكون الرجل ماشيا فى حاله تحت جنح الظلام أو رداء القمـر لا يهم، فإذا بالأشبـاح تخرج له من بين عـيدان الذرة منقضة عليه ممسكة به تحت وابل من الرشاشات الهوائية المرعبة. ان كان فى حراسة أحد فإن مصـيره معلق بنفاد الذخيرة من أحد الطرفـين، وان كان وحـده فانه سـيسلم نفسـه حتى لو أصـاب رصـاصه. يتكلون به على اللـه إلى مخـبأ بعـيد. يرسل الخـاطف واحدا من طـرفه يبلغ عـائلة المخطوف بشكل ملفوف، كـأن يكون هذا المرسل بائعا سريحا مثلا ويقول أمام رهط من القوم أنه سمع كذا وكـذا فى البلدة الفلانية. أهل المخطوف مـا أن يسمعوا الخـبر حتى يتكتـموه ويكفون فوقـه ماجورا، واذا ما سـألهم أحدهم عن مخطوفـهم فانهم يزعمون أنه مـسافر فى مشـوار وسوف يعود، إنهم بالطبع لا يجـرءون على تبليغ البوليس، لأن الخـاطف بمجرد مـا يبلغه جـواسيـسه أن الخـبر وصـل إلى الحكومة يكون عليـه العوض فى المخطوف، سوف تختفى جثته فى مكان لا يعرفه أحد. ومن هنا فأول شىء يفعله أهـل المخطوف أن يبدءوا فى البحث عن أحـد يعرف الخـاطف لكى يتـفاهم مـعـه. كل مخطوف على قـدر مسـتواه تقـدر ديته.. مطلوب ألف، ألفـان، ثلاثة عشـرة.. يأخذها الخاطف حتى يطلق سراح المخطـوف، فى لحظة يختارها الخاطف،

يفاجأ أهل المخطوف بمخطوفهم يدخل عليهم الدار ذات لحظة، وان سألوه فلن يستطيع أن يصف لهم أى شىء عن المكان الذى خبىء فيه ولا وجه أى أحد، لأنه من لحظة اختطافه للحظة الإفراج عنه يظل معصوب العينين مكتوف اليدين يدخل له بالطعام والشراب أطفال صغار مجهولون فى أماكن مجهولة، وقد يحدث الاتفاق على الإفراج فى بلدة غير التى تم الخطف فيها، وقد يتم الافراج فى بلدة أخرى بعيدة فى ساعة دامسة الظلام!..

مثل كل الأمهات فى بلدتنا كانت أمى تحفزنى دائما للمشى مع هؤلاء الولد، تقول لى:

- «قم فامض معهم مشوارا أو مشوارين بدلا من قعدتك هذه يكرمك الله بالعشاء».

ولم أكن جربت المشى معهم من قبل ياخال. وكنت أمشى قاصدا المحطة أركب منها القطار إلى مصر ولم يكن معى نقود أركب بها لكن عشمى فى الله كان كبيرا، أن أنحشر فى الزحام، ففى الزحام تتحرك يدى بكل حرية والناس ملهية فى كتمة الزحمة. دخلت محطة القطار، انحشرت بين الواقفين أمام شباك التذاكر كأن معى ثمن التذكرة. لمحت رجلا عفيا يمسك بيده جنيها كاملا، يدفع الناس بقوة لطيفة يزيحهم من أمامه يتقدم نحو شباك التذاكر يكاد يلامسه التصقت به مباشرة يابوى كأننى بقيته، ما كاد يصير أمام فتحة الشباك حتى ناداه ولد عمه من بعيد، وكانت

ذراعه لحظتها قد تسربت بالفعل من فتحة الشباك رامية ورقة الجنيه على الرخامة فى حين استدار هو ليتكلم مع ولد عمه الذى راح يأخذ ويعطى معه فى الكلام. لحظتها كنت قد صرت أمام الشباك مباشرة ورأسى الصغيرة تطل على موظف التذاكر من خلال الفتحة، الذى نظر لى وللجنيه المرمى أمامه قائلا: «فين؟» قلت بسرعة: «سيوط»، فقطع التذكرة وجاء ببقية الجنيه أزاحها أمامى فأخذتها وزرقت من بين الأفخاد والأرجل وانطلقت أجرى كالريح. وكان الزحام قد لفظ صاحب الجنيه فصار يحاول الدخول فيه من جديد والوصول إلى الشباك ثانية، فيما يصيح جاعرا: «تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه! تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه!». قلت لنفسى: فرجت ياولد، وفتحت رجلى فى المشى متدحرجا نحو سفح الطريق.

الثانية ـ الوقوع فى عرين النار

غصبا عنى وجدتنى بحذاء الجبل. كنت خرمانا فاشتريت ورقة دخان وتشوقت لكوبة شاى، فقلت للرجل الذى باعنى الدخان: «ألا يستطيع المرء أن يشرب كوبة شاى فى هذا الطريق الفقر؟». فنظر فى عينى مباشرة وراح يتفحصهما، ثم قال بهدوء العاهر: «يستطيع! طالما فى الطريق ناس فإنك لابد أن تجد فيه ماتحتاجه!». قلت: «ربنا دائما يوقف لنا أولاد الحلال!». قال: «تفضل! لف وادخل!»..

وكنت أظن أن العشة المربعة التى يجلس فيها على الطريق ويبيع السكر والشاى والدخان وابر الوابور والخيط والحلوى هى مجرد هذا المربع الصغير، فلما لففت فى الاتجاه الذى أشار لى عليه وجدتنى فى دار أخرى يابوى، بل وجدتنى فى مملكة: مثلث كبير من الارض فى منحدر خادع، مسور بالحديد والسلك أرضه تأخذ فى العلو كلما اقتربت منها. فلما دخلتها خيل لى أننى أدخل تحت الطريق فى سرداب متصل بالجبل الشرقى يمر من تحته لمسافة طويلة لابد أنه يكون من شق الفراعين أنفسهم ولا أحد سواهم يفوت فى قلب الصخور هكذا. ثم فوجئت بأننى فى مغارة

محفورة فى جذر الجبل على شكل فسقية مهولة تصلح أن تكون سامرا تحت الارض وتصلح أن تكون مدفنا للقوم كلهم. عشرات الرجال والنساء رأيتهم يجلسون جماعات أو اثنين يشربون الشاى والقهوة والقرفة العطرية ويدخنون الحشيش على الجوزة، وثمة من يقوم بخدمة هؤلاء جميعا من ولدان متحركين نشطين. ما هذا المولد يابوى؟. الرجل الطيب ظن بى خيرا، لابد أن منظرى خدعه فتصور أننى أريد ما يريده هؤلاء! أين أنا من هؤلاء يابوى؟!

استقربت صخرة مربعة جلست فوقها، رحت أتأمل فى هذا الخلق الذى لم أكن رأيته من قبل أبدا يابوى ولم أكن أعرف أنه موجود فى هذا المكان. جاءنى أحد الولدان: ساالخير ياأبو العم مساء النور أهلا وسهلا. تشرب ايه؟ قلت: كوب شاى من فضلك واحسانك. ما مرت دقيقة إلا وجاءتنى الصينية عليها براد خارج لتوه من صهد الرمل تفوح منه رائحة شاى طازج ومعه كوبة مع قطع من السكر وضعت القطع فى الكوبة وصرت أدلق من البزبوز فى الكوبة فوق السكر وأعود فأدلق فى البراد وأكرر حتى صار الشاى مربوبا مرغيا وآخر حلاوة. صرت أشرب وأدخن ونفسى مفتوحة لنفسين من الحشيش الذى بدأ يدخل فى نخاشيشى وينملها. شفطة شاى والثانية ورأيت ظلا يقف على دماغى ويصيح: «حسن ولد أبو ضب» فزعت ناظرا إليه، قلت: «خدامك.. أهلا وسهلا.. ياثلثمائة مرحبا». جلس بجوارى. منظره جدع محترم، يلبس الكشميرة والصديرى الشاهى، من الواضح أن جنبيه منتفخان بالمسدس وخزينة الذخيرة والمحفظة، عمامة كبيرة

بشال ناصع البياض حول طاقية بيضاء، جبين عريض مبيض وجهم، شارب مستنفر على الدوام باصبعين يحركهما فوق شفتيه الرفيعتين باستمرار قلت:

- «من الكريم؟»..

قال:

- «تهت عنى ياحسن ياولد أبى ضب».

قلت:

- «العتب على النظر! لا تؤاخذنى!»..

- «محسبوك زناتى»..

صحت فيه مقاطعا:

- «ولد مخيمر أبو ناهيه»

تبسم قائلا:

- «براوه عليك»..

قلت:

- ««أجاويد بنى فين»..

قال:

- «الله ينور عليك.. كيف حال الجماعة؟!»..

قلت كأننى الماكينة:

- «بخير»

ثم تذكرت أن الجماعة الذين يقصدهم هم أولاد عمى الكبير، اذ أن «زناتى» هذا ولد عم زوجة عمى لزم، صببت كوبة شاى قدمتها له: «تفضل الشاى». فأمسك الكوبة بيد كبيرة تلمع فى أصابعها الخواتم الذهبية وقال: «تشكر يا أبو العم»، ثم شفط وهز يده الكبيرة باسما فيما يقول:

- «لكن كيف وصلت إلى هذا المكان ياابو العم؟! انك اذن لشقى خطير!!».

رفعت كفى مشهدا الله صائحا:

- «مظلوم والله.. إنما حودت لأشرب كوبة شاى وهذه أول مرة أخطو هذه العتبة! صدقنى ياأبو العم!»..

قال ضاحكا:

- «طبعا طبعا.. والا كنا رأيناك وعرفناك!!».. ففهمت أنه من أعيان هذه القعدة، وأخرجت علبة دخانى وقدمتها له قائلا: «لف لك واحدة»، فتناولها، ولاحظ أن شيئا كان لصيقا بها قد وقع منها على الأرض بجواره فمال وأخذه، فاذا هو تذكرة القطار. نظر فيها وقدمها لى قائلا:

«كنت مسافرا سيوط ولا ايه ياأبو العم؟»..

خفق والله قلبى ياخال، قلت بلجلجة:

- «لم يحصل نصيب ياأبو العم.. قطعت التذكرة وجريت لكن القطار كان أسرع منى وما نابنى إلا أن انطرشت فى الأرض!. فحلفت ألا أسافر اليوم!»..

قال مشوحا بيده فى بساطة:

- «ولد عمى عمل مصيبة اليوم من أجل تذكرة كهذه .. كاد يروح فيها قتيل لولا أن ربنا سلم! » .. زلطة خشنة انحشرت فى حلقى يابوى، وأنا أحاول أن أندهش قائلا فى استنكار:

- «اليوم اليُوم !!» ..

قال:

«منذ دقائق!.. جاءنا الخبر أنه يتعارك فى المحطة.. جئنا نجرى.. لم نجده.. لكننا وجدنا جثة وهبه أفندى موظف التذاكر بالسكة الحديد.. ممددة على رصيف المحطة مشجوجة الرأس متورمة الوجه تئن تتأوه بين الحياة والموت.. وبعض رجال آخرين من زملائه منهم من تهشمت أضلاعه ومن تكسرت أسنانه ومن جدع أنفه ومن انفتح حاجبه!!.. سألنا ما الأمر ياناس؟.. قالوا أن ولد عمى أعطى جنيها لوهبه أفندى وطلب ثلاث تذاكر لأسيوط ويزعم وهبه أفندى أنه لم يعطه شيئا.. كلمة من هنا وكلمة من هنا.. هاج ولد عمى واشتغل ضربا فى الجميع ونط هاربا نحو الجبل.. فظننت أنه ربما يكون قد جاء إلى هنا فجئت أسأل عنه!!»..

غاص قلبى فى ضلوعى ياخال، صغر وتلاشت دقاته، قلت فى صوت مرتعب فى ولوله:

- «يه.. يه.. يه.. لا حول الله.. له فى خلقه شئون»..

وصرت أتصيد عين محدثى باحثا عن شىء فيها يكون قد وشى بى، فلما رأيته يستغفر معى فى واد بعيد عنى وجدتنى أقول:

- «أمن المؤكد أنه قد يجىء إلى هنا للآن!! أم تراه يهرب فى مكان بعيدا!!؟».

قال ناظرا إلى كانه يستعبطنى ولكن بلطف:

- «لا مكان للهرب سوى هنا يا أبو العم!»..

قلت برعدة خفيفة:

- «نحن إذن فى قلب الجبل الآن!!»

قال كرجل يعلم ابنه خطوط الطريق:

- «نحن الآن فى مقهى الجبل.. هذا هو المكان الوحيد الذى يعيش فيه المطاريد حياتهم الطبيعية بعيدا عن الأعداء!.. هذا المكان الذى يشبه الفسقية بسراديبها هو الخلاء الذى يعيش فيه المطاريد بحريتهم.. هو مكان اللقاء المضمون بين المطاريد وحريمهم وعشيقاتهم ومصادر دخلهم وتموينهم.. أصحابه المطاريد أنفسهم وكل الولاد المشتغلين ها هنا من أبناء المطاريد ولدوا هنا وربما ألقيت بذرتهم ها هنا أيضا ذات فجر بعيد!!.. وليس لغريب أن يقتحم حصار هذا المكان مهما كانت قوته ودباباته وطائراته، لأن المكان له عشرات السراديب السرية لا يعرفها إلا عدد محدود من عتاة المطاريد المعتقين فى الجبل، وليس كل من يعرفها يستطيع أو يجرؤ على السير فيها وحده لأن بعضها يشبه بطون ثعابين

خرافية متعرجة لا نهاية لها!. بعضها موصل إلى خلاء بين سفوح وبعضها موصل إلى عنق زجاجة مسدودة حيث لا سبيل للتقدم أو للقهقرى!. وأما إدارة المكان فيتولاها عشرة من عتاة المطاريد يصرفون عل مونتها ويتقاسمون غلتها!. يرأسهم عن جدارة ذلك الرجل صاحب كشك البيع الذى دلك على هذا المكان!.. لقد أرسلك وهو واثق انك صيد ثمين لأتباعه الجالسين ها هنا!!.. فكل من يجلس أمامك وحواليك الآن هم من عتاة المطاريد!. رجالا ونساء!.. هذه الحورية الملفوفة فى جلباب أسود وطرحة سوداء أكبر مهربة مخدرات فى الصعيد الجوانى وهاربة من أحكام تصل إلى قرابة مائة عام!. وهى تعيش حياتها ها هنا على أكمل وجه وتدير أملاكها وريع أراضيها على أتم ما يكون!. لا ينقصها من متع الدنيا أى شىء!. وبعد قليل سوف تنصرف من هنا إلى عشة مجهولة بين سفوح الجبل الشرقى تفوق سرايات الحكام فيها مراتب وألحفة ووسائد وأسرة ودواليب وأرائك وأطباق وحلل ونار ولحوم دواب!.. وهؤلاء رهط من رجالها أما زوجها فعضو فى البرلمان يزورها كلما أكله ايره!.. وكل من يجلس ها هنا بينه وبين الحكومة ثارات لاتنتهى!.. حتى أنا نفسى كما لعلك تعرف لى بين المطاريد مكانة سوف تلمسها، فلقد هربت من السجن ثلاث مرات بثلاث جرائم قتل وفى كل هروب قتلت حارسا!.. أمك والله داعية لك!.. لعله كرم أعمامك الفقهاء هو الذى ألقى بى فى طريقك قبل أن يكتشف أمرك ها هنا فيجردوك من كل شىء ويحكموا عليك بالسجن فى الجبل مدى الحياة يسخرونك لخدمتهم تحت

حراستهم فإن تمردت قتلوك أو توهوك فى الجبل شريدا لا تعرف لك رأسا من ذنب حتى تأكلك الوحوش والطيور الجارحة والحشرات السامة أو يلتف حولك ثعبان من ثعابين الجبل المتوحشة!!»..

اعطنى عقلك يابوى، فان عقلى قد ذهب. لا ادرى كم لبثت من زمن غائبا عن الوجود يحملنى صوت «زناتى» يشيلنى ويحطنى ويبعثرنى فى شعاب الجبل تدوسنى أقدام ثقيلة تطحننى ضروس بعد تمزيق أنياب. لكن «زناتى» حين لكزنى فى كتفى بعلبة دخانه المعدنية الثمينة شهقت كأننى استرددت نفسى وعدت روحا فى جسد. ضحك «زناتى» وغمزنى بالعلبة آذنا لى أن ألف لنفسى سيجارة، وكان يضحك قائلا فى سخرية:

ـ «هم يضحك وهم يبكى.. واحد يقتل من أجل تذكرة قطار.. وواحد يرمى بنفس التذكرة نحن ندفع عمرنا ثمنا لتذكرة كهذه قد لا توصلنا إلى أى جهة.. على الإنسان أن يمضى فى هذه الحياة بغير تذكرة!. لا فى القطار ولا فى الهباب!. حين يزنقك الحق ادفع وتخلص من الزنقة والسلام!. ما بال الواحد منا يضيع وقته فى قطع تذكرة!. المهم أن تلحق بالقطار ياأبو العم!. وما تنفع التذكرة من فاته القطار!»..

وجاءنا براض شاى جديد لم نطلبه. أخذت أتلفت حوالى كأننى أخشى مقدم الموت. وحقا نطق المثل: من خاف من الذئب يطلع له، فاذا بالعملاق الذى سرقت جنيهه يدخل علينا كالهول.

الثالثة ـ المطاولــة

نهض «زناتى» فاستقبل ولد عمه العملاق. أما أنا فلم أقو على النهوض ياخال..

تخشبت مفاصلى، صرت أرتعش كأنى فى مهب ريح عاتية ياخال، أتوقع أن يهجم على يبرمنى كما يبرم المرء لقمة من رغيف ويحشرنى فى حنكه يفرمنى بأسنانه. على أنه جلس بجوارنا وجعل ينظر فى وجهى متفرسا كالمتوجس، ووجدتنى أقول له:

ـ «هدىء أعصابك ياخوى.. الدنيا لم يعد فيها ذمة ولا ضمير!!»..

فشوح فى غضب صامت كأنه يقول: «دعنا من هذا الأمر ومال على ولد عمه، فعرفه ولد عمه بى، فنظر لى من تحت جبينه مغتصبا ابتسامة مرهقة وقال: «أهلا وسهلا بيك»، فقلت بحماس شديد: «ياتلتمائة مرحبا»، وهززت يدى جوار رأسى ونحو صدرى عدة مرات فى امتنان شديد.

نظر «زناتى» إلى أحد الولدان بطرف عينه، فلم تمض دقيقة حتى جاء بالجوزة والحجارة المرصوصة بالدخان المعسل. أخرج

زناتى من جيبه قطعة حشيش وراح يوقع منها بإبهامه فوق الحجارة، والولد يسقينا، ما هذه الأبهة ياولد؟ وما هذه الحلاوة وهذا الروقان؟ هكذا رحت أسأل نفسى وأردد مستعبرًا: صحيح والله قوله تعالى «وفى السماء رزقكم وماتوعدون». ولقد والله تخيلت أننى صرت ملكا يجلس على صخرة العرش. مال «زناتى» على ولد عمه وقال مشيرا إلى:

- «مكتوب له لقمة عيش فى مشوارنا»..

خفت وانبسطت فى نفس الوقت. وقال ولد عمه:

- «كل شىء نصيب»..

فقال «زناتى»..

- «لقد ساقه الله إلينا.. ما عليك الا أن تتفرغ لقطع الطرق إلى البلد!»..

جاء الولد بحجارة جديدة ونار وجوزة جديدة فكف «زناتى» عن الكلام وأخذ يرص الحشيش، وأخذنا نشرب فى صمت، ومخى سارح فى خبر هذا الكلام الذى سمعته الآن من «زناتى». فلما انصرف الولد ليغير ماء الجوزة والحجارة ويجدد النار مال «زناتى» نحوى وقال:

- «فيك من يكتم السر؟»..

قلت:

«فىّ»!.

قال: «أعرف أنك رجل ولد رجل»..

قلت: «تشكر.. من أصلك!»..

قال: «أوراءك شغل من هنا لحد الغد؟»..

قلت: « من هنا ليوم القيامة!»..

قال: «حلو»، ثم تمهل برهة وأضاف:

- «مشوارنا فى بلدة أبو حجر.. نريد أن نخطف قسيسا فلاحا!.. هو تقريبا أغنى قسيس فى البلدة!»..

قلت:

- البلدة كلها قسس.. وكلهم أغنياء!»..

قال:

- «القسيس بنيامين أغنى أغنيائها»..

صحت قائلا:

- «بنيا.. و.. ى.. ين.. يه يه يه.. أما وجدتم غير بنيامين تخطفونه ياأبو العم؟!.. انه حويط جدا يا أبو العم.. لا يخرج من البلدة أبدا.. ليلا أو نهارا.. واذا مرض فالطبيب يجىء لحد عنده!!»..

قال زناتى: «لكنه يخرج ويتحرك داخل البلدة»..

قلت وقد هالنى والله قوله:

ـ «كيف ياأبو العم تخطفونه من شوارع بلدته؟! أن البلدة كلها من الأقباط فردا فردا.. ليس فيها مسلم واحد.. حتى مواشيهم وكلابهم ودوابهم هى الاخرى تدين بدينهم وتحمل شكلهم وطبيعتهم!! صحيح أنها بلدة تعيش بمفردها معزولة وسط دائرة كلها من المسلمين.. ولكن ما تنسى يا أبو العم أنهم أقباط أقوياء!. عندهم سلاح كبير وذخيرة كثيرة وكهن أكثر ولؤم شنيع!!»..

ابتسم «زناتى» وقال:

ـ «غدا أنسب يوم لتنفيذ خطتنا.. فرجال البلدة كلهم يسرحون إلى الغيطان لجمع القطن ولن يبقى فى البلدة طول النهار سوى الحريم والعجائز تخيفهم بضع طلقات!!»..

ميلت رأسى على خدى ورحت افكر فى كلام «زناتى»، ولم أكن وصلت إلى شاطىء أستقر عليه بعد حين عاجلنى:

ـ «معنا بإذن الله ياحسن؟»..

خفت حدّة التردد، وأيقنت أنه قد يقتلنى اذا انسحبت من الموافقة، فقلت:

ـ «الله معنا جميعا بإذن الله»..

ولقد شعشع والله الحشيش فى دماغى وصور لى أن «طلعة» كهذه تجىء لابد بمبلغ كبير محترم. دخل فوق المساء مساء جديد، وفوق السهرة سهرات ألمع وأعمق حيث امتد أمامنا خير ،نعيم

كثير من مأكل ومشرب وتفكير فى الخطة المرسومة مرات ومرات ومرات نعدل فيها ونعدل التعديل ثم نعود فنلغى التعديل من أساسه ثم نعود فنعتمده بعد تعديل بسيط. كنا سبعة رجال: اثنان بالمدافع الرشاشة على مدخل البلدة، اثنان فى الشارع العمومى بالمدافع الرشاشة أيضا، ثلاث بالمدافع الرشاشة يهجمون على دار القسيس «بنيامين» الفلاح، مهمتهم انتزاعه منها بالحيلة أو بضغط السلاح اذا اضطرهم!!..

القسيس «بنيامين» الفلاح عجوز زكى، قصره محاط بحديقة ذات سور مبنى تحتوى على حظيرة كبيرة للمواشى والدواب، وهو يخرج من القصر ليتمشى فى الحديقة الواسعة يعنى بشئون مواشيه يقلم الاشجار يروى الزرع والورد، لا يقترب من باب سور الحديقة الا ليفتح الباب لأحد من خدمه أو فلاحيه، ولا يفتح الباب الا بعد أن ينظر من خرم دقيق فى حديد الباب السميك ويطمئن إلى أن الحارة كلها أمامه خالية الا من الطارق الذى يعرفه، ولن يفتح إلا اذا عرف من تصادف مروره بالحارة لحظة الطرق وقد لا يفتح إلا بعد أن تفرغ الحارة تماما الا من الطارق، ثم أنه لا يخرج من الباب إلا مخفورا بحراسة أشد من حراسة العمدة، أما الذين يعملون فى معيته فكلهم من المقربين إليه جدا وممن تربوا على يديه وآمنوا بالمثل القائل: من يأكل من خبز اليهودى يضرب بسيفه، وبعض هؤلاء يحمل فى جيبه نسخة من مفتاح باب سور الحديقة المطل على الحارة!!..

ذلك ما كنت أعرفه عن القس «بنيامين» وسمعت من زناتى، ورجاله ما عرفنى به أكثر. ألهمنى الله بفكرة طيبة ياخال، قلتها لـ «زناتى».

ـ «سمعت من ناس كثيرين فى بلدة أبو حجر أن امرأة خفير القسيس تدخل الحظيرة صبيحة كل يوم لتحلب الماشية.. وتفتح باب سور الحديقة بمفتاح تحتفظ به مربوطا فى ضفيرة شعرها.. فعلى أحد منكم أن يتصيد امرأة الخفير هذه وهى خارجة من دارها فى الصباح فيكتفها ويكمم فمها ويأخذ منها المفتاح ويخفيها هى فى مكان بعيد!!»..

وصمت ناظرا فيهم لأرى وقع الفكرة على وجوههم، فاذا بى أرى اعجابا واستنكارا معا نظرة واحدة، وابتسم «زناتى» وقال:

ـ «فكرتك حلوة ياأبو العم ولكن فيها معيلة عدم المؤاخذة!.. المرء لايبدأ العملية بالضرب من أولها والا جلب على نفسه الخطر وباظت عمليته!.. نحن يا أبو العم لا نريد الطخ واصل.. نحن لانطخ الا عند الاستغباء.. انما ياأبو العم دعنا نحلى فكرتك هذه.. فنرسل النداهة من هنا لزوجة الخفير!!»..

وقف شعر رأسى، قلت:

ـ «النداهة!! الجنية؟!»..

قال ببساطة واثقة:

ـ «نعم.. النداهة التى يخيفونك بها!!»

قلت ببساطة:

ـ «أعندكم ها هنا نداهة؟!»

قال مشوحاً نحو الفراغ الممتد فى سقف الجبل:

ـ «عندنا كل عفاريت الأرض!!»

اعتدلت فى قعدتى قائلا:

ـ «عال! عال! منصورة بإذن الله!»

واعتدل «زناتى» هو الآخر وقال:

ـ «النداهة تذهب بعد دقائق إلى دار الخفير وتنادى على زوجته باسمها.. تدحلبها وتخدرها وتسرق المفتاح من ضفيرة شعرها وتلففها بعض أماكن غريبة وتعود بها إلى دارها فتبقى نائمة حتى العصر نكون قد انتهينا من شغلنا!!»..

استحسن الجميع الفكرة، وواصل زناتى موجها الكلام إلى أنا:

ـ «ونجىء لك بثوب كثوبها.. تلبسه وتدخل الحظيرة كأنك هى.. تبدأ فتحلب الماشية.. وحين يجىء القسيس بنيامين ليتم على الحليب تمسك به وتكتفه وتسلمه للثلاثة الواقفين بالباب يدا بيد!»..

تململ ولد العم ونطق بعد صمت طويل لكن فى ضجر:

ـ «مادام المفتاح يصير فى يدنا.. ما الداعى لمسألة أن يدخل الحظيرة ويحلب المواشى؟!.. فلندخل عليه ونمسك به من قلب فراشه ونتكل على الله!!».. لكزه «زناتى» فى جنبه بقوة، وقال:

ـ «مجانين نحن! نرمى بأجسادنا فى مخدع الذئب! من أدرانا؟ انه لابد مستعد لأن يغلق علينا الباب فنأكل العلقة المودية إلى الموت! الأفضل يابو العم أن يفعل حسن ماقلناه بالحرف الواحد!»..

ومن فوره قام، استقضى لى ثوبا نسائيا أسود وشالا أسود، وفى الحال ذهبت «النداهة» إلى ماكينة القس «بنيامين» التى يسهر خفيره عليها طول الليل، فأغرته بنفسها حتى اندلق على صدرها، فخدرته وتركته سطيحة تحت تعريشة تبعد عن الماكينة بمسافة هائلة. ثم ذهبت «النداهة» لدار الخفير فنادت على امرأته وأخبرتها أن زوجها يطلبها الآن لأمر ضرورى يتعلق بخير جاءهما يريدها أن تحمله معه إلى الدار. فخرجت معها الولية فعلا، فصارت تسليها بالكلام وتشممها المخدر حتى وصلت إلى ماكينة المياه جثة تتطوح فى الهواء. نيمتها «النداهة» بجوار الماكينة وفكت المفتاح من ضفيرة شعرها وعادت به إلى «زناتى» والشمس لم تطلع بعد.

الرابعة ـ المحاولة

انطلقت أجرى بالمفتاح ومن خلفى ـ على مبعدة قليلة ـ الثلاثة المدججون بالسلاح، الذين سيقتحمون الدار لدى صيحتى. وصلت الى دار القسيس «بنيامين»، فتحت الباب، تسللت إلى الحظيرة، ولكن ما كدت أقترب من المواشى لأحلبها حتى ضجرت منى ونفرت وصارت تكسكس كلما لمستها وتنزاح هنا وهناك وتلغط بالنعير، وكنت أعرف أن هذا سوف يحدث لأن المواشى تشم رائحة من يعتاد حلبها ولا تحن الا اليه، الا اذا كان الآخر حريفا، لكننى لم أكن أتصور أن هذه الحركة البسيطة سوف تلفت نظر «بنيامين»، اذ أننى رأيت خياله يقترب من باب الحظيرة قبل أن ألمس الماشية بيدى، ثم اذا به يتوقف فى الحال عندما سمع صخب الماشية المعبر عن عدم ترحيبها بى مما أكد لـ «بنيامين» أن شخصا غريبا قد اقتحم الحظيرة، ورأيت خيال يده وهو ينكسر ممتدا فى جيبه وخيال كتلة «المسدس» تعبر فوق الارض مسرعة لتستقر بجوار قدمه، فانكمشت على نفسى تحت أقدام الماشية أخذا وضع الاستعداد لأى شىء. رأيت دماغ «بنيامين» يميل عن

المحتجب وينظر داخل الحظيرة متلصصا، وقعت عينه فى عينى مباشرة فأصابه الهلع واستدار على الفور يجرى. اندفعت أجرى وراء محاولا اللحاق به. كان أسرع منى ياخال، فدخل القصر وأغلق الباب وراءه، واذا بمن يخفرنى من الخلف ينشن على قفل الباب بطلقتين أصابت احداهما القسيس فصرخ فى حين تهتك مكان القفل وانفشخ الباب ورأينا القسيس جريحا يجرى متقافزا على السلم الخشبى العريض ممسكا بموضع الجرح بيده وباليد الأخرى يستدير خطفا ليطلق تجاهنا بعض الطلقات حتى نفدت ذخيرته، وفوجئنا به يتسلل عبر شرفة السلم فى الدور الثانى ليحتمى بدورانها، فحاصره رصاصنا داخل هذه الشرفة، وطلقات الرصاص ترد علينا من جميع انحاء البلدة على سبيل التهديد، وأراد القسيس أن يعبر الشرفة من الخارج إلى شرفة الحجرة المجاورة ولها هى الأخرى افريز من الحديد المشغول، قفز، كاد يهوى، أمسك بحديد الافريز وصار معلقا فى الهواء، فاندفعنا اليه وجذبناه من قدميه بقوة فهوى بين صدورنا، فانطلقنا نجرى به تحت وابل من الرصاص المتطاير من أماكن مجهولة. وكانت الركائب فى انتظارنا على أول الشارع فاقلتنا مسرعة فى اتجاه مكان مجهول من الجبل حيث اختفى «بنيامين» وأفقت على أننا قد عدنا نجلس فى المغارة ضاحكين كأن شيئا لم يكن. وفى عز الليل أعطانى «زناتى» عشرة جنيهات بكاملها وقال لى: «اتكل على الله أنت.. لا شأن لك بما حدث ولا بأى شىء آخر».

فعرفت أنه يأذن لى فى الانصراف، فمضيت حين أحسست أنه يريد أن ينصرف إلى شأن من شئونه الكثيرة. وكنت فرحا غاية الفرح، ليس بالجنيهات العشرة يابوى، ولكن للعملية فى حد ذاتها ياخال. وكنت أود البقاء مع «زناتى» فى هذه المملكة الساحرة، ولكننى مع ذلك سمعت صوتا بداخلى يقول لى أننى لابد من سفرى إلى مصر قبل ضياع هذه الفرصة. واتخذت طريقى نحو محطة السكة الحديد.

فى عين العدو خمسة
الأولة ـ صورتان ليستا على الحائط

عند مزلقان محطة الزيتون سألت عن قهوة المعلم «دحروج السنطاوى» الشهير بظريف، فدلونى عليها، فاذا هى أشبه ما تكون بزنزانة غرقانة فى أرض حتى الحزام، ومدخلها من وراء سور المحطة خبط لزق.

يه.. يه.. أهذه هى قهوة ظريف؟ يمين بالله أن عشة النقطة الثابتة التى يبيت فيها الخفير النظامى على مفارق الطرق لأحسن منها. غير أنه الصيت ولا الغنى.

جعلت أهبط الدرج وقلبى منقبض والله يابوى، كأننى أدخل فسقية للدفن. وقد عجبت والله لناس محترمين كالمعلم «فرهود رمضان» ورجاله كيف يجدون هنا راحتهم. مقاول غير الذى أخبرنى عنه «شندويلى»، يلعب فى زكائب من البنكنوت، كيف يجعل من هذه المقبرة مقرا له، يلتقى فيه برجاله وأنفاره ليقبضهم أجورهم ويوزع عليهم العمل؟.. وأنا مالى يابوى؟. فليجلس حتى على كوم السباخ ما دامت المياه البنكنوت تجرى فى يمينه

وشماله. هذا ملك نظمه سيده سبحانه وتعالى، فاللهم اكتب لنا لقمة عيش من يد المعلم «فرهود رمضان» مثلما كتبته لولد عمى وأهل بلدى، كل واحد قابلته قال لى: عليك بالمعلم فرهود! وكل عاطل من بلدتنا يقولون له: اجرى إلى المعلم فرهود لا تعود خائبا!.. قلت: فلأجرى أنا الآخر اليه ولابد أننى واجد شغلا لديه، اذ هو يأخذ مقاولات كثيرة من الجيش المصرى ومن الأهالى ومن كل الشركات والهيئات والوزارات، فالشغل عنده اذن لا يتوانى وكل طالب نوعا من الشغل يجده عنده.

بالصلاة على النبى خير باذن الله وفيها عيش. هكذا قلت لنفسى حينما لمست قدمى قطعة خبز مرمية على الأرض بجوار العتبة، ملت عليها فالتقطتها فقبلتها ثلاثا ملامسا بها جبهتى فى كل مرة ثم وضعتها فى جيبى.

النصبة كانت فى مواجهتى مبنية بالقيشانى ورخامتها نظيفة لامعة وكذلك الحوض والصنبور النحاس والأكواب التى انكفأت. خلف النصبة لم يظهر أحد. أما المقهى فمستطيلة من الداخل تتسع لمائتى شخص بالراحة، والترابيزات العتيقة بعوارضها الخشبية الكالحة، الطقاطيق الملتوية الأقدام المهيضة المفعصة، الكراسى المصنوعة من الخشب والقش متساندة من فرط التهالك على الحوائط وعلى بعضها البعض، كلها كلها متناثرة هنا وهناك وليس من أحد يوحد الله اللهم الا قطة شقيانة كحيانة رقدت على كرسى فاردة جسمها عن آخره ومستغرقة فى نوم عميق.

رقص قلبى ياخال وانتفض بشدة، فقلبى دائما يرقص وينتفض هذه الانتفاضة التى لا أعرف ان كانت فرحا أم خوفا، عندما أجدنى فجأة فى محل ناس آخرين وليس معى أحد، اذ يشرع دماغى فى الحال فى التنشين على أثمن شىء موجود يمكن أن ألهفه بسرعة وأختفى فى الحال قبل أن يدركنى أحد. تطايرت بصاتى مبحلقة فى كل شىء بسرعة رجفانة، أخذت الرعشة تمشى فى ساقى كالعادة. لم يكن ثمة من شىء ها هنا يستحق أن يسرق على كل حال سوى بعض الأكواب والبراريض، أما الحوائط فكانت عارية الا من بياض الجير الكالح الخشن، وعلى الحائط الخلفى للنصبة صورتان مما يباع مع المجلات بالألوان واحدة للرئيس ابو عبد الناصر والأخرى للمشير أبو عامر، الرئيس ينظر نظرة ناشفة مرعبة لشخص مجهول لعله العدو الصهيونى البريطانى الذى يحكون عنه فى الراديو والجرانين، شاربه تحت انفه المستطيل يتكتم بين شفتيه سرا شنيعا.. أما المشير فإنه يبتسم ابتسامة سبهللة وفى عينيه نظرة دبلانة نائمة متساهلة مليئة بالود المشكوك فيه ياخال كانها تقول لك افعل من وراء ظهرى ما تشاء وابسط نفسك كيف تشتهى فأنا عارف ومتغامض لكن اذا استغفلتنى مصيبتك سوداء. خيل لى والله ياخال أن سعادة المشير يكاد ينطق قائلا لى: الهف ما تشاء واجر وان لم تجد أمامك شيئا يستحق اللهف فابحث تحت النصبة لعل وعسى. كدت أفعل والله ياخال لكن نظرة أبو عبد الناصر كانت تسمرنى فى مكانى وترعشنى وتكاد تنطق هى الأخرى قائلة لى: اياك اياك

وبتاع الناس فاحترم نفسك وابق بأدبك تاكل عيشا بعرق جبينك أو فانصرف محتشما بدلا من التهزىء وقلة القيمة.

أما عقلى فقد قال يابوى: ياولد انت قادم تبحث عن لقمة عيشك فلماذا تفكر هذه الأفكار التى تغضب الله؟ اللهم أخزك ياشيطان.. ثم صحت: ياأسيادنا ياللى هنا! ياخلق! ياملايكه! فاذا بصوت يرد فى جفاء وخشونة:

ـ «عايز ايه ياجدع أنت؟»

ارتعدت ياخال، لففت حول نفسى باحثا عن مكان الصوت فلم أجد أحدا. قلت لنفسى: ليس من المعقول أن الملائكة هكذا تقول: شكل للبيع. وقلت مازحا:

ـ «أظهر وبان عليك الأمان».

عاد الصوت مرة أخرى يرن رنينا عميقا:

ـ «عايز إيه وبلاش غلبة؟»

آثار النوم كانت عالقة بالصوت. جلست على أقرب كرسى وقلت:

ـ «عايز واحد شاى»

فإذا أنا بمارد يتمطى متسللا من تحت النصبة يدعك فى عينيه يتثاءب بصوت كالعواء. سحب السخان الكبير من فوق الرمالة، عدل كوبا وضع فيه قليلا من السكر وصب فوقه الشاى، أشار لى

بذراعه الطويلة قائلا: «اتفضل»، ولكن بلهجة من يقول: «اطفح». نهضت واقفا وذهبت إلى النصبة لآخذ الشاى فنظرت للرجل جيدا فرأيته طويلا نحيفا، وجهه مستطيل ملىء بالأخاديد المشحونة بالقهر والشقاء وكبر السن، لكن فى عينيه طيبة شديدة ويكتم بين شفتيه الرفيعتين خفة دم ظاهرة.

لامست الكوب بأصابعى فوجدته ساخنا فتركته منتهزا الفرصة للوقوف مع الرجل. كان معى سيجارتان معوجتان فعدلت واحدة وقومتها وأعطيتها له، ووضعت الأخرى معوجة فى فمى. قلت له: ـ

ـ «مش دى قهوة المعلم دحروج السنطاوى برضة»

أشعل ورقة من تحت الرمالة أشعل بها سيجارته ثم قربها منى قائلا من خلال الدخان:

ـ «أنا المعلم دحروج السنطاوى يلزم خدمة؟»

ضحكت كأننى لا أصدقه:

ـ «المعلم فرهود رمضان يقعد هنا؟»

قال:

ـ «عايز منه إيه؟»

قلت:

ـ «عايز أشتغل»

قال مشوحا بكوب الشاى كانه يطردنى:

ـ «تجىء له هنا بعد صلاة المغرب»

جعلت أشرب الشاى فى غيظ. قال الرجل بعد برهة كانه صار من الآن مسئولا عنى:

ـ «عندك مكان تبيت فيه؟»

قلت على الفور:

ـ «لا والله يا أبو العم.. أنا من الغنايم قبلى وقادم لتوى ولا أعرف أحدا هنا»

هز رأسه فى يأس من سمع هذه القصة آلاف المرات، ثم شخط فى صائحا:

ـ «ماعلينا.. ماذا ستفعل؟»

شوحت قالا فى ضيق:

ـ «أرض الله واسعة ياأبو العم.. ومن يقصد الكريم لا يضام»

صب لنفسه كوبة شاى صغيرة كالكستبان شفط منها شفطة ومن السيجارة شفطة، رفع ذراعه اليمنى مشيرا إلى اتجاه المزلقان خلف المقهى:

ـ «هنا شادر بطيخ صاحبه الحاج رفقى وهو طيب وصعيدى مثلك من قديم الأزل! ينام عنده ولد عمك وبلدياتك الصعايده وكلهم ممن لا أقارب لهم! ستراه قاعدا أمام شادر البطيخ حتى

الصبح! قل له انك تشتغل عند المعلم فرهود وأعطه خمسة قروش فيدعك تدخل وتنام داخل الشادر! وإن دفعت له قرشين اثنين يدعك تنام بجواره فى الخلاء ويحرسك هو حتى الصبح».

أحببت الرجل يابوى، شكرته على هذه الخدمة الكبيرة ورحت أشرب الشاى على مهل طامعا فى خدمة أخرى كهذه تقع من الرجل أمامى فانتفع بها. لكن طفلا صغيرا صاح من أعلى السلم طالبا ستة شاى فى الأجزخانة. فاستدار المعلم «دحروج» وصب الشاى فى الأكواب الستة. فبسرعة قمت أنا بسحب الصينية ورصصت فوقها الأكواب ثم ملأت كوبين بالماء ووضعتهما على الصينية قائلا: «أوديهم أنا». فابتسم قالا: «أنت قهوجى؟».

قلت: «تعلمت من المعلم شندويلى». قال: «بتاع مصر القديمة؟».

صحت فى فرح شديد: «تعرفه؟». قال فى فرح أشد:

ـ «عشرة عمر! اشتغلنا سويا فى الفاعل وفى كل بلوى»

قلت:

ـ «عال! عال! كسبنا صلاة النبى!»

وأحسست بأننى سيكون لى عشرة طيبة مع المعلم «دحروج» فسحبت الصينية بالاكواب وشرعت أمضى قائلا: «فين الاجزخانة؟».

قال: «هنا»، وأشار إلى جانب المقهى، فحملت الصينية ومضيت حتى أوصلتها إلى الأجزخانة وعدت، لأجد المعلم «دحروج» يلف

سيجارة وضح لى أنه يحشوها بالحشيش، ففرحت كل الفرح يابوى، قلت له: «مساء الفل يامعلم». بص لى من تحت جبهته المنكسة قائلا: «تشربه؟». قلت: «أشربه». فاشعل السيجارة وجذب منها نفسين عميقين ثم قدمها لى، فسحبت نفسين أعمق، وأعدتها اليه، وهكذا راحت تنتقل بيننا الانفاس العطرة حتى انتهت السيجارة بنغمشة فى تلافيف مخيخى فعرفت أن المعلم «دحروج» حشاش قرارى وصاحب قرارى أيضا. قضيت معه أحلى عصرية، دار بيننا الكلام الطلى لا يقطعه إلا خروجه لتوصيل طلب، عرفت المعلم «دحروج» كأننى تربيت معه وهذا أحلى ما فينا يامصريين ياأولاد العرب: المعلم «دحروج» له أربعة ولدان صبيان موظفون فى الدولة أحدهم وكيل وزارة العمل وأمين وحدة الاتحاد الاشتركى عن الحى، وخمس بنات متزوجات من كبار التجار وكبار الموظفين، له أربع عتبات ملكا، كل عتبة تفتح على خمسة ادوار وسبعة أدوار وكل دور يفتح على أربع شقق وخمس، كما أن له ـ فضلة خيرك ـ أرضا زراعية فى بلاد الأرياف نواحى بلدته السنطة فى الوجه البحرى.

عرفت بين ما عرفت أشياء كثيرة عن الحاج «فرهود رمضان» أشهر مقاول عمومى فى هذه الناحية كلها: هو فى الأصل لم يذهب إلى مدرسة، اشتغل عتالا فى ميناء «أثر لنبى» أيام كان قائما على شط نيل مصر القديمة، اشتغل مع «الأورنس» فى «كامب الانجليز» موردا للأنفار ثم قائما ببعض العمليات الصغيرة من بابها، جمع مالا كبيرا وخبرة واسعة، صار يأخذ عمليات

كبيرة للجيش البريطانى، بناء ثكنات عنابر مكاتب، مصنوعات ومفروشات وأدوات وكل شىء تطلبه منه ينفذه لك وكله بحسابه. فلما قامت الثورة كان الحاج «فرهود» قد صار كبيرا يابوى، صارت لديه شركات كثيرة للنقل والشحن والتوزيع والبناء والتخطيط واستصلاح الأراضى، كل ذلك والحاج «فرهود» لا يعرف أكثر من فك الخط بإمضاء عاجزة لكنها بصمة لا يمكن تقليدها، يشتغل عنده ناس من كبار القوم يابوى مصروف عليهم ثقلهم ومن أرباب المراكز العالية يذهبون إلى مكاتبه كل يوم بمرتبات كبيرة ينخفض منها السمع، ويلبسون الملابس بالشىء الفلانى ويركبون الأوتومبيلات ذات الأجنحة كالطيارات، أما هو فلم يخلع الجلباب يابوى، لا ولا العباءة والعمامة الصعيدية الكبيرة حتى اليوم، وكل يوم يجىء بنفسه إلى قهوة المعلم «دحروج» ليحاسب العمال بنفسه ويوزعهم على العمل. لكنه إن دخل على أتخن تخين فى البلاد ينتفض له قائما يقدم التحية والاحترام، مرسال منه إلى قسم البوليس يفرج عن المحتجز فى التخشيبة، كارت باسمه له إعتباره عند وكلاء النيابة ومديرية الأمن، تليفون منه إلى شخص تتحرك البضائع المتعثرة فى جمارك الموانىء والمطارات وتنفرج كثير من الكروب عن كثير من الرجال هنا وهناك، ربنا يعطيك ويعطينا فهى الدنيا ان أرادت تعطى قالت خذ عندك وما عليك إلا أن توسع لها، قيراط حظ ولا فدان شطارة يابوى. اعطنى حظا وارمنى فى البحر بدون عوم. إنما الحاج «فرهود» مع ذلك شاطر قوى يابوى، مفتح وشهم

وجدع يعجبك، راضع من بز أمه لا أحد يستطيع الوقوف قصاده، لكن كله بالطيبة والأخلاق وحسن المعاملة.. والأهم من هذا وذاك دعاء الوالدين.

ازددت يقينا بأننى سأجد شغلا وراحة لدى الحاج «فرهود» فما كاد المساء يغمر جو المقهى مبكرا حتى أضيئت لمبات النيون كالعصى الممدودة على الحيطان وفى السقف. بدأت قوافل الأنفار تجىء فترمى بخلقاتها على الأرض بجوارها وتنحط على الكراسى بوجوه كالحة معفرة بالتراب متشققة، لكن أصواتهم الحبيبة ملأت المقهى دفئا حيا وحلوا ياخال، عملت زيطة وزنبليطة كأنها الفرح، هم ولد بلدى يابوى يحل الفرح أينما حلوا، الفرح فى أعقابهم أسرح من طلقة رصاص التار.

لغليغة كبيرة يابوى شملت الدنيا، عراك ما تدرى فرح ما تعرف، وأصل الحكاية أنهم يتحدثون فحسب، ينادون بعضهم بعضا يتفقون يتعاتبون يتواعدون. ثمة من يقوم فينضم إلى طابور صغير أمام حوض الحنفية ليسلم رأسه ويديه ورجليه للماء يتوضأ ويعود ماسحا أطرافه فى أطراف ثوبه وما يلبث حتى يقيم الصلاة فى ركن مفترشا منديله المحلاوى أو لاسته أو تلفيعته. المعلم «دحروج» يصيح فى هذا ويشخط فى ذاك بأعلى صوت، فيردون عليه بصوت أعلى مشوحين بأذرعهم السرحة المعروقة فى الهواء وعروق رقابهم تنتفض حتى لتكاد تطرقع، وما الأمر فى النهاية إلا مجرد زعيق.

الطريف يابوى أن المعلم «دحروج» كما لاحظت كان فى أشد السعادة بهذه الزيطة. أقطع بأن زعيقه المتواصل هذا، وشخطه فى كل من صادفه، إن هو ألا تعبير عن فرحته ياخال، فهؤلاء هم مصدر رزقه الوفير. يوم الجمعة من كل أسبوع يتولى هو محاسبة الحاج «فرهود رمضان» نيابة عنهم ليحتجز حقوقه طرفهم. هكذا قال لى قبل مجيئهم، وأخبرنى أنه فى الصبح يصنع فولا مدمسا شهيا لا نظير له فى مصر القاهرة كلها ويقدم معه بصلا أخضر وجرجيرا ومخللا بالمجان للآكلين. وفى المساء يقدم وجبة عشاء قوامها عدس وبصل أحمر ومخلل. من جمعة لأخرى يجدد العشوة بطبق من المسقعة أو البصارة الطيبة. إنه يابوى يتحدى أن يجلس مخلوق أمام طعامه دون أن تفتح شهيته ويأكل أصابعه، وهو ينسى طبعا يابوى أن الذين يجيئون للأكل عنده يكونوا فى الأصل واقعين من الجوع، والجوع غموس كما قال سيدنا «عبد الرحيم القنائى» طيب الله ثراه وأرضاه.

أحلف اليمين يابوى أن «دحروج» كان صادقا فيما ظننته يسرح بعقلى كى أندب أنا الاخر مثلهم فأسلمه يوميتى على ذمة آكل، كله أونطه فى أونطه، وهل أنا عبيط يابوى حتى أعطى الأمان لأبناء المدينة حتى ولو كانوا من أبناء الريف سابقا؟ صنف أصحاب المحلات الذين يبيعون الناس أكلا مطهوا جميعهم خربو الذمة لا يكلفهم الطبق مليما ويبيعونه بخمسة وعشرين، مالى أنا والأكل المطهو؟ ابن ذوات أنا يابوى؟ ما عيب الرغيفين والبصلات

مع طبق من الفول أشتريه أنا من عربة جوالة مملوء لحافته لو كان عند «دحروج» وأمثاله يقسمه على أربع أطباق ويسمى كل منها واحدا.. هذه الأكلة فى الصباح ودمتم على ذلك حتى صباح اليوم التالى اذ أننى جئت إلى هنا كى أرسل الحوالة البريدية لأمى كل بضعة أيام لا لكى يجزرها المعلم «دحروج» أو غيره من الدحاريج الأخرى بجميع أنواعها.. عبيط أنا يابوى؟!

صدق من سماه «دحروج»، اذ أنه تدحرج إلى قلبى شيئا فشيئا حتى تملكه وتمكن من الضرب فى قلعة مخى المنيعة الصلبة العنيدة، عزمنى على العشاء بالمجان، أى والله يابوى غير أننى لم أكن أظنه يقصد ذلك حقا فى أول الأمر. ذلك أننى فوجئت بسيدة شابة من بنات الحارات الفاتنات تلبس فستانا أسود يظهر شدة بياضها الآسر، ويظهر جسما مخروطا على قالب ملىء بالأبراج العالية والقباب تطير عليه كل أبراج الدماغ قبل الحمام، وآه ياخال، حافية القدمين بكعبين كريالين من الفضة وسمانتى قدمين كشهدتين طائبتين، ممتطة الجذع بارتفاع صدرها الناهد مع ذراعيها وكتفيها تسند بيديها حلة كبيرة. ثمة من يتطوع ليحمل عنها الحلة قبل وصولها السلمة الأخيرة، وهى تصيح فيه بصوت كالغنج اللاهب: «حاسب! حاسب أحسن دى سخنه». الكل يريد التطوع بسند الحلة للاحتكاك بالمرأة ما أمكن، مداريا نواياه الخبيثة بطيبة مفتعلة فى قولهم: «على مهلك يا أم حنفى! كيف حالك يا أم حنفى! وحشتينا يا أم حنفى» وهى لا تنى ترد على كل

واحد بلهجة بين الجد والمزاح لكنها إلى الجد أميل بحدة، مما دلنى على أنها فى جوانيتها التى لا يعلمها إلا الله امرأة بحبوحة هازلة إلى حد كبير. يابوى وأنها تخشى ضياع هيبتها تماما بين الناس فتفقد بذلك لقمة عيشها: «يسعد مساك ياخويه! ماتشوفش وحش ياضنايا! ربنا يعطيكم الصحة والعافية ويقدركم على شقاكم!».

عرفت بالفهلوة يابوى أن «أم حنفى» هى التى تتولى طبخ العشوة لحساب المعلم «دحروج» فى منزلها وتأتى بها إلى هنا فى يوم معلوم. قلت لابد أنها تقوم أيضا بتدميس الفول عندها وتجىء فى الصباح تملأ به «قدرته» النحاسية اللامعة. وقد صدق حدسى يابوى، وهمس لى ولد من بلدياتى بأن «أم حنفى» هى الساعد الايمن ـ والأمين ـ للمعلم «دحروج» منذ سنين بعيدة مضت، وكل شىء يتم فى منزلها الكائن فى حارة سد ضيقة من حوارى حلمية الزيتون، إذ كان زوجها بوابا لعمارة كبيرة واسعة مبنية فى بواكير نشأة الزيتون. للعمارة منور كبير واسع تطل عليه أبواب ثلاثة من غرف البدروم كان صاحب العمارة يستخدمها مخزنا لبضائعه من زيوت طعام ومواد غذائية بجميع أنواعها إلى حبوب ومحاصيل وخمور وما شئت، لذا فقد لزم أن تكون غرفة البواب هى الباب الرابع المطل على فسحة هذا المنور الكبير الذى تسقط إليه الشمس والأمطار عابرة عشرة طوابق من الشبابيك الصغيرة وبسطات سلم الخدم الحلزونى الذى لا يستخدمه أحد. وقد خدم البواب ـ «أبو حنفى» لدى الزيات ـ صاحب هذه العمارة ـ مايزيد

عن عشرين عاما حتى مات بفعل الشيخوخة والمرض، مخلفا «أم حنفى» وخمسة عيال زغب الحواصل هم «حنفى» وأربع بنات.

الولية صعيدية يابوى، محكومة، شابة لاتزال، لكن أكل العيش مر، والشاطر من يحلى مرارته، يحليها بالشقاء الزائد والتعب والعرق، أمال يابوى، بدلا من التفريط فى الشرف وتعريض النفس لسؤال اللئيم. كل شىء فى الدنيا قد يتضح أنه عيب إلا الشغل عداه العيب وسافر. اشتغل يابوى واشتغل تذوب فى حنكك مرارة المالح وتجد نفسك فى نهر الحياة مرتويا بالعزة والكرامة والمهابة. هذا ما صرت أقوله لنفسى يابوى مقتديا بهذه الولية الغلبانة الجدعة «أم حنفى». التقطها المعلم «دحروج» ـ كما يزعم ـ بنية أن يساعدها على المعايش ويوفر لها رزقا. وواقع الأمر يابوى ـ يقول ولد بلدى من حولى ـ أنه يستغلها أشنع استغلال يابوى، يتخذها خادمة تقوم وحدها بما يطلب من مجموعة عمال، خلاف استغلاله لمنزلها، الذى هو عبارة عن غرفة واحدة تنام فيها بأطفالها تزاحمهم فيها أجولة الفول والعدس وبراميل الزيت. ولولا أن سكان العمارة كلهم يتعاطفون معها لضايقوها.

«أم حنفى» غابت ثم ظهرت ثانية فى فراغ الباب تحمل صندوقا كبيرا جدا، ما أن وضعناه على الأرض حتى تبينت فيه تلالا من الأطباق البلاستيك والألمونيوم الصغيرة، يتخللها أكوام من البصل الأحمر وصفيحة ملآنة بالباذنجان تفوح منه رائحة تقول لك كلنى أنا وحدى فى التو، نفس الكلمة التى يقولها لك

جسد «أم حنفى» بمجرد ما تراه، خاصة إذا طلع صوتها بالغنج الذى لا افتعال فيه. تطافسنا فمددنا أصابعنا خلسة لتخرج بنسيرة من الباذنجان نلتهمها والمعدة ترقص. شخطة المعلم «دحروج» هى التى أوقفتنا عن التهام الباذنجان كله. مرة ثالثة ظهرت «أم حنفى» تحمل طاولة عليها تلال من الخبز الساخن، تركتها على رخامة النصبة وانصرفت. تقدم المعلم «دحروج» وصار يتناول الأطباق فيملأها بالعدس مرشوشا على سطحها حفنات التقلية. ولد بلدى يتزاحمون عليه، وكل من حصل على طبق مال نحو الصندوق فانتخب بصلتين كبيرتين وانتخب باذنجانة كاملة ثم عرج على طاولة العيش فانتقى ثلاثة أو أربعة أرغفة. خلال ذلك عادت «أم حنفى» بطاولات جديدة من الخبز عدة مرات متلاحقة. حتى إذا ما انقلبت المقهى كلها إلى ناس منكفاة فوق الكراسى وعلى الأرض، والأيدى كلها متصلة بين أطباق عديدة من العدس والخبز وبين الأفواه، مكن شغال يقرقش البصل يطحن فى لذة وانشغال عظيمين مهيبين يابوى كأنهم يؤدون أعظم وأقدس عمل فى الوجود يابوى.

كنت الوحيد الذى لا يشترك فى هذه العملية، أجلس وحدى فى ركنى هذا منذ بداية تفريق الأطباق، إذ أننى فى الحق لم أكن أنوى أن أدفع «خمسة تعريفة» فى واحد عدس كهذا فوق قرش للرغيفين الذين أحددهما لنفسى فى الطقة الواحدة ثم أن كل ما معى من قروش لا يسمح لى بهذه الرفاهية، ربما لا ينفع ثمنا لهذه

العشوة وحدها فأنا لم أشتغل مثلهم بعد ولم يجر القرش فى يدى. راقبت المعلم «دحروج» وهو ينظر خلفه فى انتظار أن يتقدم منه أحد يطلب طبقا، شمل الجميع بنظرته تأكد من أنهم جميعا مندمجون فى الأكل، مسح يديه فى خرقة مبللة ثم جفف يديه فى جوانب جلبابه البوبلين الكالح ذى الياقة والأساور المشمرة، مضى يجر ركبتيه نحو النصبة، ما أن وصلها حتى صب لنفسه كستبان شاى ثم أشعل سيجارة نفث دخانها فى الهواء ناظرا هنا وها هنا، وقعت نظرته على فيما أنا متكور فى ركنى أقول يأرض انشقى وابلعينى، أحاول إبعاد عينى عن الآكلين بأى شكل إيقافا لريقى الجارى مع مضغهم، كسرت عينى هربا من نظرة المعلم «دحروج»، لكن بعد أن تأكدت من أنه رآنى ياخال، تأكدت أيضا من أنه قد فوجىء وقد اندهش، ففرحت وارتبكت معا يابوى، خفت أن يجرنى فى السؤال حتى يضطرنى إلى الاعتراف أمام الذى يسوى والذى لا يسوى بأننى ليس معى نقود، ورحت أدبر كلاما أرد به اذا ما سألنى: لماذا لا تتعشى؟ لكننى أحسست به يرشف الكوبة كلها بسرعة، وبظله يخرج عن حدود النصبة يتجه إلى حلة العدس الكبيرة فيكشف غطاءها، يتناول طبقا من الصندوق، بالمغرفة الكبيرة راح يقلب العدس المتبقى فى قعر الحلة ثم جعل يغرف ويضع فى الطبق عدسا تخينا يتصاعد منه الدخان ورائحة التقلية ثم يتناول طبقا آخر، رشقه بين أصابع نفس اليد ثم انتشل من الصفيحة أربع باذينجانات كبار سليمة وضعها فى الطبق،

ووضع فوقها أربع بصلات كبيرات، وعرج على الطاولة فانتخب تلا من الخبز يزيد عن ثمانى أرغفة حلوة التقاطيع حمراء الخدود خفيفة الدم، أى والله يابوى هكذا بدت لى ساعتها. ما أدرى إلا والمعلم «دحروج» مقبل نحوى بهذه الوليمة العظيمة، ثم تربع على الأرض متأوها، رص ما معه على الأرض، شور لى نحو الأرض قائلا: «إنزل يا أبو العم». وأنا ما كان مرادى أن يصل الأمر إلى هذه اللحظة لكن صوت الرجل كان حادا قاطعا وبسيطا فى نفس الوقت ينذرنى بالقطيعة إن تمنعت يعلن على الخسة أن نشفت مخى ياخال، وعلام نشفان المخ يابوى! لكننى ربت على صدرى قائلاً: «كتر خيرك يا أبو العم! تشكر تشكر! ألف هناء وشفاء!». شخط بحدة كأننى عبده الذى يشتغل عنده ويأمر بقوة: «إنزل يابو العم قلت لك!»، وأحسست أنه يعلق أبو العم هذه ويمطها بغيظ كما لو كان يذكرنى بأنه يتفضل على بهذه اللفظة والمفروض أن ينادينى بسواها، وتأهبت لأغضب وأعملها زعلة ولكننى ألهمت أن لاداعى لتنشيف المخ أكثر والا انكسر وتفتت، غير أننى إرتبكت يابوى، صرت أردد ألفاظا من قبيل: «أصل.. أنا.. كنت.. إلخ إلخ» فى حين لا أقول شيئا، فبدا على وجه الرجل تصميم ينذر بفضيحة لو أننى سقت الدلع أكثر من هذا، كدت أميل على أذنه هامسا: «أصلى ممعييش فلوس!». لكنه كان أسرع منى، إذ شور لى ناظرا فى قلب عينى نظرة جادة: «إنزل إنزل! على حسابى!»، تململت قليلا ثم نزلت متربعا قصاده وفى نيتى أن أنفنق بمضغ لقمة أو لقمتين إكراما للرجل، فما كدت أمد يدى وأسحب الرغيف

حتى لامس ركبتى بأصابعه علامة تنبيه. فنظرت فيه باهمية فنظر فى باسما يقول: «بس العزومة دى الليلة دى وبس! إوعك تاخد على كده! اللى أوله شرط آخره نور ياابو العم!». ثم ضحك وضحك الجميع فضحكت معهم مضطرا. لكن، ما كدت أشرع فى تغميس اللقيمات بالعدس والباذنجان والبصل حتى فقدت الوعى والله يابوى، فصرت أطوح فى فمى بلذة فائقة والرجل ينظر لى من حين لحين مبتسما كأنه يذكرنى بتحديه السابق عن مذاق أكله.. لا أذكر عدد الأرغفة التى مزقتها وبرمتها وطوحتها فى بالوعتى، لكننى أذكر أن الرجل جاء بتل آخر من الأرغفة وأعاد ملء الطبق مرتين وهو يقول: «معلهش! غلطتى وأستحق التربية! ما كان مالى! ما الذى دهانى فدعانى لأن أقطع أملك فى تذوق طعامى مرة ثانية بدون نقود!»، وحين أخرج أمامى آخر بصلة ونفض آخر ما فى الحلة صار يعشمنى قائلا: «لا تصدقنى يا أبو العم! لسوف تأكل عندى وقتما تشاء دفعت أو لم تدفع!».

ثم أنه اتجه إلى النصبة فملأ براض العمال ولقمه بالشاى وصف الأكواب منعدلة فيما هو يدخن بلذة فائقة. ثمة خاطر يحول فى دماغى بأننى ساكون حتما من زبائن الأكل عند المعلم «دحروج»، وأننى لا محالة تارك له يوميتى يجزر منها الحساب الذى يحدده هو وذمته!.. صار يصب الشاى فى الأكواب ويريحها بعيدا وكل واحد ينهض فيجىء ويأخذ كوبا ويمضى. قمت بدورى فأخذت كوبا، فنظر لى قائلا: «على حسابى برضه؟». قلت: «لا..

على حسابى أنا! والأكل أيضا على حسابى! عزومة هذه الليلة بالذات على حسابى ياأبو العم! ويبقى لى عندك عزومة!». إرتفعت أصوات الشفط فصنعت جوا لطيفا. راح المعلم «دحروج» يفر فى دفتر ممزق سحبه من تحت النصبة، بقلم جاف أخذ يدون حساب كل واحد منهم، ثم صاح تجاهى ويده على صفحة جديدة بيضاء: «اسمك ايه يا أبو العم؟». صحت قائلا: «حسن ولد أبو ضب». كتبه، ولا أدرى ماذا كتب أمامه من أرقام، لكننى فى الحال فتحت دفترا فى دماغى وكتبت فيه ما أخذته اليوم بالمليم.

إلا والحاج «فرهود رمضان» داخل علينا، حوله أربعة رجال أشداء وجهاء بعمائم صعيدية كبيرة وجلاليب من الصوف المعتبر وعباءات من الجوخ على أكتافهم. كانت شخصية الحاج «فرهود» أوضحهم، يتقدمهم، قصير القامة نوعا، عريض الكتفين، ممتلىء الوجه بالدماء والعافية، غليظ الملامح، تخين الصوت أجشه، يرتدى مثلهم نفس الثياب ولكن العز والفخفخة ناضحان عليه، ومن فتحات الثياب تتدفق النعمة فى ملابس داخلية ثمينة، من الواضح أنه يستحم ويحلق ذقنه كل بضع ساعات، وبيده العصا الأبنوس العوجاية.

كل من معه تأففوا من الكراسى ونفضوها بأطراف ثيابهم الا هو جلس على أقرب كرسى كيفما اتفق. فلما اندهشت أخبرنى ولد بلدى أنه على هذه الحال منذ ما يزيد على عشرين عاما ولم يشأ

أن يغير عاداته بعد أن أكرمه الله وصار من الأثرياء، بل فضل أن يظل يباشر عمله الأصلى فى المقاولات البسيطة بنفسه، تاركا شركاته الكبيرة لموظفيه الكبار يديرونها بالطريقة التى يعلمونها تحت إشراف وحراسة أبنائه وهم أفندية كبار متعلمون..

ثمة رجال آخرون كانوا خارج المقهى بالمئات صاروا يتدفقون علينا. فبعضهم جعل يقبض أموالا كبيرة سيقضى بها مصالح عاجلة، وبعضهم يقبض أموالا صغيرة، والبعض الثالث يتلقى بعض الأوامر والتوصيات وينصرف. فوضح لى أن الرجال الأربعة الجالسين هم أربعة رؤساء كل واحد منهم مسئول عن حوالى مائتين أو ثلاثمائة نفر يعملون فى عملية معينة فى مكان ما تبع الحاج «فرهود». فلما لاحظت أن الزحام بدأ يخف ويتلاشى تقدمت من الحاج «فرهود» وقلت له: «اتمسى بالخير ياحاج». قال: «مسا النور.. تحب تشتغل فى إيه؟». قلت والبشر يطفح منى «أنا أحب أن حضرتك تشوف لى شغلة على قدى!». نظر فى متأملا ثم قال: «إنت كنت بتشتغل ايه قبل كده؟». قلت: «سماك.. وقهوجى». أعاد النظر فى وزام مفكرا ثم قال: «أما السمك فلم نشتغل فيه بعد! وأما القهوة فأمر فيه نظر». قلت محننا قلبه: «ربنا يخليك! ويزيدك من نعيمه». أعاد نظره فى ثانية وقال: «أنت منين ياأبو العم؟». قلت بسرعة: «من الغنايم قبلى! كوم سعيد! من ولد أبو ضب! أعمامى المشايخ الكبراء! يمكن

تسمع عنهم!». انبسط وجهه فجأة قال: «بقى أنت ولد أبو ضب! دا الشيخ أبو ضب الكبير كان الفقى بتاعى ياولد! كنت تلميذا فى كتابه وأنا طفل صغير! ووالله ما نفعنى فى الحياة حتى اليوم سوى ما تعلمته منه فى ذلك الزمن! رحمه الله!». انفشخت يابوى على الآخر وكبرت قامتى أمام الخلق، ونظر هو إلى واحد بجواره وقال: «ياريس حمدون! خذه معك إلى المعسكر باكر! فإننا نحتاجه!»، ثم نظر لى قائلا: «باكر قبل طلعة الشمس تكون هنا منتظر الريس حمدون لتركب معه وتروح المعسكر الهايكستب!». قلت بقليل من التوجس: «حاشتغل ايه فى الهايكستب ياحاج؟». شوح* قائلا: «باكر سأريك ما تفعله». ثم حول نظرته عنى مرددا فيمن حوله: «حد تانى عايز أى حاجه منى؟». فلما لم يتقدم أحد بحاجة نهض متكئا على العصا قائلا: «توكلنا على الله». فنهض الجميع فساروا خلفه وانصرفوا.. فحل بالمقهى هدوء شديد شديد خفتت له الأضواء فى اللمبات.

الثانية ـ سقف العراء!

شادر البطيخ كبير جدا يابوى، يشبه دوار أكبر عمدة فى البلاد كلها. يتهامس ولد بلدى قائلين العجب: هو ثروة كبيرة فى يد صاحبه الحاج «رفقى»، الذى استولى على هذه المساحة الشاسعة بوضع اليد منذ سنين طويلة ثم أجرها من البلدية ثم آلت إليه ملكيتها فى النهاية بثمن بخس طلع عليه مصاريفا نثرية. شادر البطيخ اسم فحسب يابوى، والبطيخ كله لا يزيد عن كومة صغيرة مرصوصة فوق بعضها على باب الشادر. أما الشادر نفسه ـ الممتد على مساحة فدان! أو أكثر، والمبنى بجدران طينية ومسقوف بمشمع الخيم ـ فإنه ملآن بعربات اليد الصغيرة مجنزرة بأقفال فى صفوف طويلة من أول الشادر إلى آخره، وبقية من أرضه ملآنة بأجساد مرصوصة جوار بعضها، منهم المغطى ببطانية جيش قديمة، والمغطى بحرام صوفى عتيق، والمغطى بجوال مخرق، والمغطى بجلباب قديم متهرىء. أما الحاج «رفقى» نفسه فإنه ـ تحلف اليمين ـ لا يساوى تعريفة، كرش هرمى قاعد على الأرض، له ما يشبه رأس الإنسان، فتحة طوق جلبابه مفشوخة

وفتلة من الدوبارة المتينة مربوطة فى عروة الصديرى وطرفها الآخر مربوط فى محفظة جلدية كبيرة جدا ومنتفخة فى جيب الصديرى، وجهه كالبطيخة بالضبط يابوى، لونه ـ تحلف اليمين ـ بين السواد والخضار، منتفخ العينين يملأ العماص جفونه..

رحت وجئت من أمامه عدة مرات ومرادى أن أكشف عن زاوية بعيدة منه أرمى فيها جثتى سواد الليل دون أن أدفع شيئا، فعراء بعراء وخلاء بخلاء ولا داعى إذن للخسارة قرشين. كنت أظنه لا يلحظنى يابوى، لكن اللعين شعر ـ وهو فى مكانه ـ بملامسة جلدى لجدار الشادر المخفى عن نظره، إذ ما كدت أتقرفص مرتكنا للحائط كأنى سأستريح برهة وجيزة حتى سمعت نحنحة بصوت عال وبنغمة ذات معنى. وما كدت أتمدد واضعا ذراعى تحت رأسى حتى جاءنى صوته راعدا كصوت العواء المقبض: «أنت ياجدع أنت! هى وكالة ولا إيه؟!». فنهضت فى الحال جالسا، أظهرت نفسى مقبلا نحوه: «ساالخير يا حاج رفقى». وضع كفه كالتندة فوق عينيه صاح بغير ود: «سا النور ياخويه! انت من اللى بيترموا تحت الجدران ولا إيه؟!». تبسمت رغما عنى قائلا: «لا! أنا من رجالة الحاج فرهود! وراجل أعجبك! بس الزمن هو اللى قاسى!». إغتصب إبتسامة خشنة، قال: «طب وماله!. بس تيجى تمسى علينا الأول واحنا نشيلك على راسنا!» قلت: «عاوز أبات للصبح!» قال: «جوه ولا بره؟». قلت: «جنبك هنا!». قال: «نص

افرنك». قلت: «والحاج مالوش إكرامية؟». شوح قائلا: «الحاج قدام نص افرنك؟ دا حتى يبقى عيب!» ثم أشاح عنى كأنه أنهى المقابلة. مددت له يدى بالقرشين والغيظ يفرينى، وقلت لنفسى: صحيح أنها مصر أم العجائب! عشنا وشفنا من يبيع لنا النوم فى العراء بقرشين! حار ونار فى جتته.

استرطبت بقعة مجاورة له تماما وتمددت طاويا ذراعى تحت رأسى. وقلت له قبل أن أستغرق فى النوم: «والنبى تصحينى بعد صلاة الفجر على طول!». قال «طيب». غفوت، ثم صحوت، ثم غفوت ثالثة، وكلما صحوت لأعتدل على الجنب الآخر رأيت صف الأجساد المتمددة بجوارى يصل إلى آخر جدار الشادر من كل ناحية.

الثالثة ـ نهارك أبيض!

من شاهدنى لحظة عشوة العدس بالأمس لا يشاهدنى صباح اليوم، وقد اندمجت فى الرجال حول قدرة الفول ورحت أصيح مثلهم بلهفة واستعجال: «شوية زيت حار هنا! بصلة يامعلم! بدنجانه تانية!». أكلت حتى امتلأت صحة وصرت بفعل الفول والبصل يابوى مستعدا لضرب الحديد بقبضتين.

تسلطنت أمام كوب الشاى الساخن وكان معى سيجارة مكن هليود قطمتها نصفين شبكت أحدهما فوق أذنى وفرطت الآخر فى ورقة بافرة برمتها وأشعلتها وتأملت لون الدخان فرأيته ارتوازيا فى لون الصباح أبيض القلب ياخال. كنت قاعدا على الرصيف خارج المقهى فى انتظار الريس «حمدون». وقعت عينى ـ سامحها الله ـ على نافذة بيت فى مواجهتى على الرصيف الآخر تشبه طاقة مستديرة مغطاة من الخارج بشبكة سلكية، وثمة وجه آدمى يحاول النظر من خلالها من الداخل. كانت الحائط من الخارج مبلولة بالرطوبة وفيها مواسير للمياه مما جعلنى أفطن إلى أن هذه النافذة فى حمام البيت يابوى. فأصابنى هياج كبير يابوى، وأنا ما

كان مرادى أن أنظر يابوى لكنه الشيطان قاتله الله، هو الذى أقامنى من قعدتى فعبرت الطريق إلى الرصيف وفي ظنى أن الذى يحاول النظر من النافذة من الداخل لابد أن تكون امرأة، لعلها «أم حنفى» أو من تشبهها، ولابد أيضا أنها تطلبنى لشىء أو ترغب فى مساعدة، وإلا مابقيت تواصل النظر هكذا يابوى ولابد كذلك أن الله جعلنى انتبه إليها يابوى لمصلحة لها أولى. ما أن وصلت إلى النافذة حتى توقفت مرتعبا وقلبى ينتفض. شببت على أطراف أصابعى، فتبينت الرأس المشعر واقفا لايزال خلف الشبكة السلكية. ثم قفزت فى الهواء أمام النافذة ملقيا بصرى فى الغرفة فاصطدم بظلام دامس. مخ صعيدى يابوى صدق من أسماه. صممت على رؤية هذا الشخص والتأكد من أنه امرأة تنادينى من خلف الحجاب لتتواعد معى على شىء ووعد النساء دائما بهيج ياخال.

فى قفزة عالية قلت للرأس الواقف خلف الشبكة: أنا خدام. فى قفزة ثانية قلت: أأمرى وأنا أنفذ. قفزة ثالثة قلت: أى خدمة. فى قفزة رابعة سقط جسدى بين أيدى ثلاثة من الرجال الأشداء، كتفونى، وخذ عندك.. فين يوجعك: زغد وتلطيش وتشليت وسب أم وكل ما لا قلبك يحبه. إذا بهم مخبرون سريون، وإذا بهذه الغرفة هى غرفة الحجز التابعة لقسم الشرطة الذى يطل على الشارع الجانبى. أخذونى إلى القسم يابوى وأنا أصيح لله مايغيثنى حتى تحطمت قواى قبل أن يبدأ النهار، فياله من نهار شؤم كانت بدايته نافذة السجن يابوى.

ولد أعمامى وبلدياتى لحونى، فصاروا يضحكون يصيحون فيما أنا واقف أمام الضابط والضرب شغال على قفاى. سألنى ما الذى كنت أفعله مع المساجين؟ فلم أعرف جوابا قط سوى قولى: والله ما أعرف أنه سجن. الذى طلع على ساعتها قولى: والله ما أعرف أنه سجن. إلا والريس «حمدون» مقبل علينا كالأسد يضحك. نهض له الضابط وسلم عليه باحترام كبير - طبعا يابوى. قال الريس «حمدون»: عمل ايه الولد ده! عملت ايه ياولد؟». قال أحد المخبرين: «ضبطناه ينط على منور الحجز ويتكلم مع المحتجزين. رحت أبكى وأبكى، قلت: «أبدا والله! أنا كنت ألعب شوية رياضة وعمال أتنطط». قال مخبر آخر وهو يركز بصره فى عينى: «يارجل اتق الله فى دينك! بطل كدب!». وضحك الريس «حمدون» وقال: «تتنطط ليه ياولد؟ إنت مجنون ولا إيه! داهية تسمك!»، ثم لطشنى هو الآخر كفا تخينا على صدغى حتى اصطدم خاتم فى أصبعه بضرس فى فمى فصرخت فزعا. قال الضابط: «حضرتك تعرفه؟». قال الريس «حمدون» وهو يبدو عليه أنه تاثر من ضربى: «أيوه دا من أنفارنا! دا ولد عبيط وغلبان وابن ناس طيبين! يلا قدامى ياولد!». نظرت إلى الضابط، فأشار لى بيده قائلا: «غور من هنا واوع أشوفك تانى!». فاندفعت أجرى إلى المقهى، لأجد ما تبقى من الزملاء يضحكون ولكن فى شعور بالخوف والشفقة على حالى يابوى. فلما لحق بى الريس «حمدون» أشار قائلا: «يلا يا ولداركب انت وهو!».

كانت عربة اللورى واقفة تشبه عربات الجيش أو الشرطة الخالق الناطق غير أن هذه مكتوب عليها: «فرهود». ركبناها، وركب الريس «حمدون» بجوار السائق. مضت العربة فاخترقت «عين شمس» حتى وصلت إلى الهايكستب فانفتحت أمامها البوابة فمضت فى الداخل مسافة طويلة حتى انتهت بنا إلى قرب محطة تسمى «المصحة»، هى آخر محطة للقطار الذى يصل من باب الحديد إلى هذه المنطقة وجنود الجيش يخرجون من المعسكر إليها بعد مشى طويل ليأخذوا منها القطار إلى باب الحديد عند سفرهم فى الإجازات، وبالطبع ينزلون فيها عند العودة.

توقفت العربة عند بنايات متقابلة بسقف جملون، وقيل انزلوا. فنزلنا، ساقنا الريس «حمدون» خلفه فمشينا بين هذه البنايات الظليلة وقلبى منقبض غاية الانقباض ياخال. لست والله أعلم السبب، ربما كان بسبب الضرب الذى نلته اليوم على ريق الصباح، وربما التشاؤم من تنطيطى أمام غرفة السجن بكل سعادة وغشم، ربما يابوى كل هذا ولكن السبب الذى كنت أحسه قاطعا فى نفسى هو منظر الرءوس المطلة من شبابيك هذه البنايات وفوقها الكاب الأحمر والاخضر والأزرق، ومنظر النجوم والضبابير اللامعة وهو مشهد يلقى الرعب فى قلبى وحده ياخال، لست أحب مشاهدته أبدا، إذ أن أمى طول عمرها كانت تسعى لاعفائى من الجهادية بأى ثمن، ولولا رهافة قلبها لفعلت بى ما يفعل غيرها بابنائهم إذ يكسرون له أصبعا او يختلقون فى جسده

تشوها لكى يسقط فى فرز النظارة ولا تأخذه الجهادية. لكن أمى طول عمرها ونحن كلنا طول عمرنا نكره هذه الكابات وهذه الضبابير والنجوم والشرائط كراهيتنا للإنجليز فكيف أجىء لهم بقدمى يابوى؟! ندمت والله على أننى وافقت بالأمس على المجىء إلى هنا، كان الواجب أن أقول: لا، حينما جاءت سيرة المعسكر والهايكستب، لكنه قدر الله يابوى. وعلى كل حال فلابد أن أتصنع النوم حتى يفقد الريس «حمدون» أمله فى شغلى فيستبعدنى عن هذه الفرقة وبعدها يحلها الحلال يابوى. إنهم بالطبع يعرفون أننى أكلتها اليوم أزواجا وأفرادا، ولابد أنهم سيصدقوننى إن زعمت المرض.

انفصلنا عن البنايات وصرنا نمشى فى عراء الشمس مسافة طويلة إلى أن صادفتنا بنايات أخرى على صفين متقابلين لكنها متهدمة. عندها توقف الريس «حمدون» فتوقفنا. لحظتها فقط انتبهت إلى أن الأنفار كلهم يحملون معهم فئوسا وكريكات ومقاطف وقصاعا وأشياء من هذه الا محسوبك لا يحمل شيئا. قلت: حلو، سوف يكتشف الريس «حمدون» هذا فيزجرنى ويطردنى فأتكل على الله إلى محطة «المصحة»، عائدا إلى باب الحديد ومنها إلى باب الله. الريس «حمدون» شاهدنى ولكنه لم يفعل شيئا، وقف يوزع الأنفار على الجدران المخرقة ليحولوها إلى هديم وأنقاض. ذلك أن هذه هى إدارة المطار الذى دمرته طائرات العدو، سوف نعيد بناءه من جديد على نسق آخر. هكذا قال الريس

«حمـدون». كان ثمـة عسكرى كـالحارس يجلس على مـقربة من الهـديم وبجواره راديو مـاركة صـوت العـرب مفـتوح عن آخـره وصوت «محـمد عبد المطلب» يصـدح مغنيا: ياسايق الغـليون عدى القنال عدى.. وقـبل ماتعدى .. خد مننا وادى.. ده اللى فـحت بحر القنال جدى.. عدى.. عدى.. ياسـايق الغليون. تلاشى صوته تحت صوت أم كلثوم يغنى: صوت السلام هو اللى ساد واللى حكم. ثم تلاشت هى الأخرى ودخلت المجموعة تصـدح بجعير يفزع القلوب حماسة: الله أكبر! الله أكبر!..

قلت فى نفسى: ما للإذاعة اليوم زائطة هكذا والكل عمال يدخل فى بعضه يريد أن يغنى فوق الآخر بالعافية فمال على أذنى قائلا: «أما علمت»؟ قلت بلـهفة: «ماذا»؟ قـال: «هجم علينا ثلاث دول هى انجلترا وفرنسا واسرائيل». قلت: «هجمت علينا كيف ياأبو العم؟!» قال: «علـى بور سعيـد! ودار القتل فـى الشوارع والبـيوت وطال الضرب مصر القاهرة من الجو وهذه نتـيجة الضرب هم يهدمون ونحن نبنى». صـرخت فيـه: «لماذا فكرتنى بالضرب ياشـيخ! لعن الله الضرب والضـاربين حتى يجـربوا عذاب المضروبين!» حـينئذ لكزه زميله، فتركنى وجرى بفأسه ومقطفه.

كل الأنفـار توزعت وبدأ الشغل فى الحـال الا أنا يابوى، ظللت فى وقفتى ميهضا أنتظر المصير. فلما اطمأن الريس «حمدون» إلى أن الشغل يمضى على بركة الله، اسـتدار نحوى كانه فوجىء بى. يبدو أننـى صعبت عليـه يابوى. تذكر الكف الذى رزعـنى به، فإذا

هو يضع يده برفق شديد على كتـفى ويربت، واذا هو يستدرجنى فى المشى بجواره واضعا يده على كتفى كانما ليصالحنى، وإذا هو يقول: «تقول أنك فى الأصل قهوجى؟». استدركته مصححا: «أقول اننى اشتغلت قهوجيا ذات يوم». قال مبتسما: «يعنى عندك فكرة». قلت: «عندى وأفهم فى هذه الصنعة جيدا». ربت على ظهرى قائلا: «حلو! الناس بلدياتك هؤلاء طول النهار بودهم لـو يشربوا الشاى عاملين الـشاى حجـتهم فى القـريفة خصـوصا بعـد الغداء! وهذا معسكر! ليس فيه كـلام من هذا! ما رأيك لو جئت لك بوابور وعدة نصـبت هنا نصـبة شـاى وقهـوة جنب الأنفـار وربنا يرزقك من ورائهم! أمـا المعسكر فليس لك شـأن به فلن يتـعرض لك أحـد ما دمت أنت فى منطقـة بعيـدة عن الخطر! هم أيضـا يحبـون شرب فنجان من القهوة وواحد شاى عند العصارى! سترزق من ورائهم أيضا»..

لم أدر والله ياخـال الا وأنا منهال على يدى الريس «حـمدون» بالتقبيل والشكران. تفاءلتِ خـيرا بهذه الشغلة التى لم تكن تخطر لى على بال ياخال، حـيث لا يتحكم فى أحـد ولا يثقل كتـفى حمل قلت للريس «حمدون»:

ـ «هذه الشـغلة هى عـين المرام! ولكن أنا مـا مـعى نقـود الآن اشترى بها العدة والمونة فما يكون الرأى؟»..

قال: «أنا أعطيك سلفة تشتـرى بها لوازمك وعندما يكرمك الله ردها». وفى الحال نقدنى خمسين جنيها بالتمام والكمال اهتز من

لمسـهـا بدنى كله ورقص قلبى ولولا خوفى من رهبة الريس «حمدون» وقوة الحاج «فرهود» لأخذتها ووليت عائدا إلى الصعيد وبارك الله فيما رزق، إلا أننى كنت قد نويت لله خيرا واستقامة، ووجدتنى أقول فى غبطة: «وهل أنا سأقدر على رد هذا المبلغ ياريس حمدون؟». شوح بخاتمه فى وجهى قائلا: «ياخى.. بكره تسقينى بيهم شاى وقهوة».

قلت: «أبدأ من غد». وكان قد مضى خطوات فاستدار صائحا: «بل من الآن! فما وراءك اليوم؟». قلت: «كيف ياأبو العم والمواصلات كلها.» قاطعنى: «عربات المعسكر طول النهار رائحة جائية إنزل فى واحدة وارجع فيها أو غيرها المهم أن تشعل نارك اليوم وتسقينا شايا بعد الغداء إن الرزق يحب الخفية يابو خاله!». ثم تركنى ومضى. قلت والله لأفعلن.

تسلقت عربة جيش نازلة. ألقت بى فى الزيتون وأوصيت السائق أن يمر على فى قهوة «دحروج» ليشرب شايا ويأخذنى فوافق وأوصانى بدوره أن أشترى له علبة سجائر ورطل موز فوافقت ـ المعلم «دحروج» فرح لما أخبرته الخبر، تمنى لى كل خير، زودنى بالنصائح عن أسعار السوق وفن الشراء وعن أن أجود الوابورات البريموس وأجود الكوبات ياسين وأجود الشاى البنت الفلاحة وأجود السكر الخرز يفرط معك ويحلى. كل ذلك فيما هو واقف معى على الباب. دعوت له بالستر ومضيت، قصدت

المحل الذى وصف لى مقره، إشتريت منه الأدوات كلها من إبرة الوابور حتى البراريض والملاعق، وفناجين بأطباقها للضباط والكابات المزينة بنسور ثقيلة. لف البائع لى كل ذلك لفة واحدة فى صندوق كرتونى كبير متين مبطن بالقش والورق حملته فوق راسى ومضيت. قصدت دكانا آخر وصفه لى المعلم «دحروج» أيضا فاشتريت منه شايا وسكرا وبنا وينسونا وحلبة وكراوية وكركديها وكبريتا. هو الآخر لف لى كل ذلك فى رباط متين حملته فى يدى ومضيت إلى مقهى المعلم «دحروج». مررت بقسم الشرطة فوجدتنى أتلكأ فى السير أكاد أزحف كأننى أكيد له أريه إلى أى حد أنا رجل محترم ومعى نقود تشترى أشياء كهذه. أمال يابوى. بجوار المقهى حودت على كشك للسجائر فابتعت منه علبتين هليود صغيرتين واحدة لى والأخرى للعسكرى سائق العربة. ولم يكن قد بقى من الثروة كلها سوى ورقة بعشرة جنيهات صحيحة صعب على أن أكسرها بشراء الموز، والقروش المتبقية معى تكفى للنوم على باب الشادر وتذكرة قطار كوبرى الليمون. إستدرت فوجدت العربة واقفة على مبعدة والعسكرى جالس على باب المقهى يشرب الشاى فى انتظارى. فلما رأى منظرى بالشيلتين وحرصى على شراء السجائر شفط الكوب كله ونهض يحمل عنى فأعطيته الصغيرة ومضيت بالكبيرة فوضعناهما فى أرض العربة واستدرت صائحا: «الشاى عندى

يامعلم». رد قائلا: «ماشى يابو العم». فانتشى فؤادى وفهمت مزية أن يكون لك دفتر حساب عند الناس وأن يستروا كرامتك أمام الناس فى لحظات كهذه. ركب السائق وأدار المحرك العربة عدة زعقات متوالية كأنها تنذرنى بأن أتذكر شيئا أكون نسيته قبل الرحيل وكنت أرى الموز على مقربة منى لكننى اعتمدت على أن زعقات العربة استعجلتنى فقفزت شابطا فى الباب المجاور للسائق ودلفت جالسا بجواره جاذبا الباب معي نشوة أنست ضلوعى وجع الشلاليت المؤلم. مؤخرتى ياخال كانت هى الأخرى تنضح بألم الشلاليت تقرصنى كلما حاولت الجلوس. احتوتنى شلته الكرسى فغفوت لمدة جزء يسير من الثانية، أى والله يابوى، تحلف اليمين اننى مادريت بشىء البتة، إلا أننى فتحت عينى فجاة فوجدت العربة معتدلة على الطريق الطوالى نحو المعسكر. فدب فى أوصالى الانتعاش وفنجلت عينى كانى صحوت بعد نوم طويل وها قد أصبح الصباح فاذا بى على غاية واضحة ومستقبل فيه العشم الكبير.

قال السائق: «صح النوم». قلت: «صح بدنك ياوحش!»، وأخرجت علبة السجائر فمددتها نحوه قائلا: «دى هدية منى لك! ولكن لاتؤخذانى نسيت الموز! يظهر إنك استعجلتنى! لكن!». قاطعنى: «لقد اشتريت»، وترك عجلة القيادة مسنودة بطرف اصبعه، وسحب سباطة موز نزع منها ثلاثة أصابع رماها فى

حجرى قائلا: «قشر وكل!». ثم نزع ثلاثا أخرى رماها فى حجرى قائلا: «وقشر لى». تراقصت من الفرح وقشرت له وقربت الأصابع من فمه فالتهم والتهم. وقشرت لنفسى والتهمت فنزل طعم الموز فى جوفى بردا وسلاما يابوى، صرت ادعو للولد بالستر أشكر الله على عظيم نعمه وفضائله، فما انتهيت من مضغ الأصبع الثالث حتى كان الولد العفريت قد فك سلوفان علبة السجائر وفتحها ونزع منها سيجارتين قدم لى واحدة ووضع الأخرى بين شفتيه ثم أخرج مشط الكبريت فأشعل عودا صنع لشعلته بكفيه قبة تحميها من الهواء وقربه منى فأشعلت سيجْارتى باستمتاع وأشعل لنفسه ورمى بقايا العود فى الهواء بعد أن أطفاه ثم أخرج من جيب صدره شلنا ورقيا رماه فى حجرى قائلا: «ثمن علبة السجائر». قلت صائحا: «لا ياوحش! هى هدية منى لك!»، ورددت الشلن لكنه ضغط على يدى بعنف قائلا: «هديه إيه يا أبو العم! أنت رجل على باب الله تستحق المساعدة!»، وظل قابضا على قبضتى بأصابع حديدية حتى تألمت فصحت: «خلاص! خلاص!»، وخلعت قبضتى من قبضته ووضعت الشلن فى جيبى وقد أحسست نحوه بمشاعر الأخوة والصداقة. انفتح له قلبى يابوى، نسيت به كل وجع فى، رحت أواصل الدعاء له بالستر وهو يتابعنى مرددا: «آمين يارب العالمين إحنا وإنت والسامعين!»، حتى صرنا فى قلب المعسكر.

استقبلنى ولد بلدى بزيطة كبيرة، صار بعضهم يساعدنى فى فك اللفتين، والبعض يصنع لى مـركزا على مبعدة قليلة، اذ جىء ببـعض عـروق الخـشب المتـخلفـة عن الأنقـاض، وبعض الالواح العـريضة الكثـيرة المتـراكمـة هنا وهناك، وألواح الصـاج وأعواد الحـديد. من كل ذلك تشكل ـ فى دقـائق معـدودة والله يابوى ـ كهف جمـيل راكع على الأرض فتح فكيه كالتمـساح المحنط، فإن دخلته وجدته ممدودا، وكلما امتد ضاق مـجاله حتى يلتقى سقفه بأرضه فى انبـعاجة وضعت فيـها صفائح الميـاه الحلوة للشغل، وأقـمت طاولة عالـية ووضـعت الوابور فى مكانه والأكـواب فى مكانها ولم يبق أمامنا سوى إشعـال النار. صار الجميع فى أشد الشوق لسماع صوت الوابور بل أن الـعساكر المراسلة جاءت من المبانى البعيدة تسأل اذا ما كان الوقت قد حان لفنجان قهوة على الريحة بسـرعة؟.. غيـر أننى كنت كالأهبل فى الزفـة. سامح الله المعلم «دحـروج» ذكرنى بـكل شىء الا شراء الجـاز، إلا أن ولدا بحراويا من سلاح الاشارة غاب قليلا وعاد حاملا زمزمية كبيرة ملآنة بالجاز فاستبشرت خيرا. إن هى إلا ثوان قليلة حتى صهلل الوابور وتوج رأسه بالبـراض العمال الكبـير كعـمامة الصـعايدة لكن زرقـاء. كانت أمـتع لحظة لحظة أن رأيت الجـمـيع مصطفـا أمامى فى الكهف وخارجه ممسكين بالأكواب الممتلئة بلون غروب ذلك اليوم.

وكنت أشرع فى إطفـاء الوابور وجمع العدة استـعدادا لمغادرة المعسكر مع زملائى الأنفار حين جاءنى الولد البحراوى وقال أننى يحق لى المبيت هـا هنا حيث أنه قد جـاء لى بتصريح من القـيادة حيث أنهم رحبـوا جميعا ببقـائى فى الليل. قلت: فرجت. جىء لى بصندوق خشبى فارغ وكبير من صناديق الذخيرة قلبته على فمه جعلـت من قعره سـريرا. أما الأكل والشـرب فمـيسـور أمره فى المعسكر وأما الطلبات الأخرى فطريقها معروف وسيارات المعسكر لا تكف عن الرواح والمجىء، ناهيك عن سيارات «فرهود».

الرابعة ـ بل القراقيش

طابت لى الحياة فى المعسكر يابوى، جرى القرش فى يدى والأشياء صارت معدن وآخر فل بالصلاة على الحبيب النبى: هات واحد شاى ياحسن.. هات خمسة قهوه ياحسن.. ياحسن ياحسن ياحسن صرت أشهر واحد فى الهايكستب كله، الضابط قد لا يعرف بعض جنوده لكنه يعرفنى حق المعرفة. صرت كل بضعة أيام أنزل إلى المدينة لأتسوق المونة، وكل من أراد طلبا من سكان المعسكر يؤجله لحين نزولى. قرش من هنا على قرشين من ها هنا تتجمد الجنيهات، فقبل أن يذيبها دفء ضلوعى أرحلها إلى البلد بحوالة بريدية لأمى.

فى ليلة من ذات الليالى كنت أتأهب لإنزال الباب والنوم، وصوت الوابور كان يون فى بطء شديد لهث يدعونى للتشطيب بسرعة، وكانت يدى قد وصلت بالفعل إلى المحبس لإفراغ الهواء حين دخل على عسكرى صعيدى يحمل لفة مستطيلة. إرتمى على الصندوق قائلا: «واحد شاى ياحسن قبل ماتطفى». صببت له واحدا وبقى فى الكنكة قليل من الشاى، فلما رأيت الولد العسكرى

يلوح بورقة سلوفان فيها عدساية أفيون كبيرة أفرغت بقية الشاى فى كوبة صغيرة لى قائلا للولد: «ليلتك فل». اقتسم الولد عدساية الأفيون معى وجلسنا نشرب الشاى. الساعة فى معصم الولد كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. الولد العسكرى هذا يابوى، بلدياتى، تعرف على منذ أول يوم، فكرنى بنفسه وفكرته بنفسى وبان أننا كنا أصحاب أيام طفولتنا فى كوم سعيد فى الغنايم قبلى، لولا هذا ما كنت آمنت له. لم أكن أدقق معه فى شىء، مرة يحاسبنى وعشر مرات يشرب ويمشى، لكنه بين وقت وآخر يفاجئنى بهدايا لطيفة، حتة حشيش كبيرة، عدساية أفيون، علبة بولوبيف مبرشمة، علبة سجاير أجنبية، طبق من قطع اللحم المسلوق، أرغفة صابحة مع طبق أرز. ذلك أن هذا الولد يابوى، يشتغل فيما يسمونه بالكانتين وفوق ذلك هو واد ملقط وابن زانية، مفتح على الآخر، جدع، خفيف الدم مفعص الوجه له عيون مثل عيون الكلب ساجية على الدوام وسنتان بارزتان وفك طويل وأذنان طويلتان مما يجعلنا نتصور أن أمه لابد أن تكون قد بنت بكلب وأنجبت منه هذا الولد واسمه «قرقوشه».

كان من الواضح أن الولد «قرقوشة» مسطول على الآخر. قلت له: «إنت جاى منين ياولد؟» سقط الخبث من عينيه إلى شفتيه فتهدلتا بابتسامة مرتجفة. كأنه أراد أن يخلص من النق عليه راح يدعبس فى جيب الأفرول ثم استخرج قطعة حشيش تصلح خمس ست سجائر بالراحة. أغلقت الباب علينا وأشعلت الوابور لكى

تغطى رائحة الجاز على رائحة الحشيش ورحنا ننسجم بشراهة كبيرة. فنجلت عين «الواد قرقوشه» فكان لابد أن أسأله:

ـ «إلا قل لى يا واد ياقرقوشه! إنت بتجيب الحشيش والأفيون ده منين!؟».

قال ضاحكا:

ـ «من باب الله! بيجينى لحد عندى من غير ما أدور عليه! المعلمين الصعايدة يا آبا! قرايب صاحبك! كلهم معلمين كبار قوى! يعجبوك قوى قوى!».

اندهشت والله يابوى، قلت له:

ـ «وإنت إيه اللى وداك حداهم يا قرقوشه! ولا إيه اللى جابهم حداك! دول ناس شياطين ياوله! وانت راجل على باب الله زينا!».

ضحك الولد الملعون وشد نفسا عميقا تبعه بشفطة شاى وقال ببساطة:

ـ «هم كل يوم والتانى هنا! ومنا عسكر كثيرون يشتغلون عندهم مراسلة وحرسا وكل ما شئت من شغل!».

اندهشت أكثر يابوى، تلعبك دماغى وزغولت بطنى وصرت أقول:

ـ «هم رتب فى الجيش!؟».

شوح بقبضته السوداء فى وجهى غامزا بشفتيه:

- «أنت عدوك أهبل؟! كل واحد من أقربائه هو الآخر له محاسيب! هى لعبة ولا إيه! كله يابنى بتاعه هنا وهناك! أمشى وراه تكسب وتاكل الشهد!».

تحلف اليمين يابوى أن صدرى تقاربت ضلوعه وكبست على أنفاسى يابوى. شىء إلهى قال لى أن الولد «قرقوشه» وراءه سر غير طبيعى، انه ولد واعر يابوى، ولا يصح أن تصدق من كلامه شعرة واحدة، وكل من يتلصق فى كبير أو غيره من الكبار المهابين لابد أن يكون - من أساسه - نصابا محتالا، أو يكون منصوبا عليه مثل ولد بلدى هذا..

كنت لا أزال محيرا فى هذه اللفة التى جاء بها معه ووضعها بجواره على الصندوق، إلى أن نهض واقفا وقال:

- «مش عايز أى حاجه من البلد؟ أنا مسافر فى قطار الصحافة ثمانية وأربعين ساعة!».

قلت:

- «عايز سلامتك! سلم لنا على البلد وكل من تراه».

فمضى نحو الباب يتلصص ويقول مشيرا إلى اللفة:

- «خلى دى بقى هدية منى ليك!»

بسرعة أمتدت يدى وأمسكت باللفة فإذا هى بندقية آلى ملفوفة فى خرقة. كدت أصرخ فيه يابوى، والذى دار فى دماغى ساعتها أننى يجب أن أصرخ وألم عليه الدنيا تبرأة لنفسى، فلربما يكون وراءه من يراقبنا، لكننى تذكرت أنه بلدياتى وولد جدع وأننى لم أفعل معه الا كل خير، صحت فيه بفحيح يمزق القلب:

- «فى عرضك ياقرقوشه! أنا راجل عندى عيال! عيلة كاملة فى رقبتى! نريد نأكل عيشا فلا تودى بنا فى داهية! الله لا يسيئك!».

الملعون ضحك ضحكا مكتوما وزغدنى فى صدرى برفق قائلا: «ماتبقاش صعيدى مقفول وعبيط!» ثم همس قائلا:

- «خير تعمل شر تلقى! الحق على أنا أردت خدمتك! هذه يمكن أن تبيعها بمبلغ حلو! خمسين ستين جنيها! لست أطلب منك شيئا غير الكلمة الحلوة والعلاقة الطيبة!».

تحلف اليمين يابوى أننى صرت كالفار فى المصيدة، أنظر هنا وهناك، أفتح الباب وأخرج وأعود، لأقول له:

- «أعمل معروف يا ابن الناس! خذ هذه المصيبة وارحل عنى بعيدا! الله الغنى!».

إبن الكلب لم يهتز حتى وهو يرانى أرتعش وأكاد أبكى. بل كان يبتسم والفجور يطل من بين أسنانه. ضغط بيده على كتفى حتى اقعدنى فى هدوء وراح يقول:

- «أنت تتفتش حين تخرج من البوابة؟».

قلت:

ـ «لا يابو العم! أنا الوحيد الذى لا يفتشه أحد على البوابة!» إذا به يبتسم قائلا:

ـ «إنهم يفتشونى دائما ومع ذلك لابد أن أهرب كل مرة حتتين وثلاثة!».

قلت:

ـ «كيف يا أبو العم؟».

قال:

ـ «شطارة!».

قلت:

ـ «عجايب والله! وكيف تتصرف فيها ياولد؟!»

قال:

ـ «ألف من يشترى فى الصعيد! وألف من يبيع!».

صرت والله أرتجف من جميع أنحاء جسمى، الا وصوت أقدام مقبلة نحو كهفنا من بعيد، فانخلعت كل مفاصلى وقلت جاءك الموت ياتارك الصلاة. لكن الولد اللعين قبض على كتفى قائلا:

ـ «متخافش! متخافش! على كل حال خليها عندك لحين رجوعى من السفر! فسوف أقابل خطيبتى هذه المرة من بعيد لبعيد».

واذا به يرفع الصندوق قليلا ويسربها تحته ويقوم ليفتح الباب ويمضى مخلفا اياى كومة من الثلج السائح. سمعت فى الخلاء من يؤدى التحية ويسلم على بعض الناس باسمهم، وبقيت فى تكومى أنتظر من القادم أن يدخل فيحملنى ويفتشنى ويضع الحديد فى يدى. القادم كان أحد الضباط ومعه بعض الأمباشية: مساء الخير يابو على.. مساء النور يافندى.. فقمت أشعلت الوابور صنعت لهم شايا وظللت أرتجف خلف النصبة إلى أن حيونى وانصرفوا.

مضى حوالى شهر يابوى والولد لا يرينى خلقته. فقلت والله لاجربن هذه الشغلة. كنت نازلا لشراء التموين فأخفيت البندقية تحت ملابسى فى الحزام من الجنب وخرجت من البوابة دون تفتيش، فاسرعت الخطى إلى محطة «المصحة». وقبل ذلك بحوالى جمعة كنت فى المدينة فخطفت رجلى إلى المعلم «شندويلى» فى مصر القديمة وفاتحته فى هذا الأمر سألته إن كان يستطيع تصريف بندقية؟ فقال: «هات بدل البندقية مائة! هات ماتقدر عليه وخذ منى أربعين جنيها عن كل واحدة». سألته أين ستصرفها يامعلم شندويلى؟ فقال أنه على علاقة طيبة بتجار السمك الكبار كلهم ـ وكلهم من «كوم سفحت» نواحينا ـ ومعارك الثار قائمة بين عائلاتهم لا تنتهى ولا يفرغ لها ضرب نار! غير أن المعلمين الكبار هنا متفقين مع بعضهم إتفاق شرف أن يتم التقتيل فى البلد والا يتعرض أحد لاحد هنا، وما عليهم هنا إلا توريد الأسلحة لذويهم فى البلد!.

كنت أثق فى المعلم «شندويلى»، فاتخذت طريقى إليه مباشرة، سلمته البندقية فداراها فى عبه، ثم انصرف وغاب حوالى نصف ساعة عاد بعدها قابضا على أربعين جنيها مطوية ووضعها فى يدى فقلت: «واكراميتى؟!». نظر فى وجهى مترددا ونزع من جيبه جنيهين وضعهما فى يدى قائلا: «مش خساره فيك! بس إنت هات كتير وخلى بالك من نفسك كويس!!.

ثم.. ثم أننى استحليت اللعبة يابوى.

الخامسة ـ حلاوة النار

كل بضعة أيام يجىء الولد «قرقوشة»، منتفخ الصدر غليظ الجنبين، فما أن يطمئن إلى أننا وحدنا حتى يرفع الصندوق ويسحب من عبه فردة أو فردتين وبعض علب ذخيرة يسربها تحت الصندوق ويجلس فوقه كأن شيئا لم يكن. أحيانا لا يجدنى فى الكهف فيفعل فعلته وينصرف ليعود ثانية يعطينى خبرا. أنا أيضا تعودت كلما غبت عن الكهف وعدت أرفع الصندوق تلقائيا وأمرر يدى تحته بحثا عن الأمانة، وفى العادة أجد خيرا كثيرا. تحلف اليمين يابوى أننى حتى هذه اللحظة لم أعرف سر الولد «قرقوشة» العجيب. لقد حيرنى يابوى وبعثر دماغى فى كل ناحية فما نجحت فى فهمه وما استطعت أن أعيد لم دماغى ثانية. اذا فرضنا ياخال أن هذا الولد يسعى لجمع النقود من وراء هذه الشغلة فما باله لا يطلب منى نقودا أبدا؟! كلما عزمت عليه بالنقود أبى كل الإباء! غير أنه كلما واتته فرصة السفر إلى بلده استلف منى شيئا، من خمسة جنيهات إلى عشرة، وفى العادة لايردها ولا يفاتحنى فيها. كثيرا ما يسألنى عن حجرين من الحشيش

أو بوستة أفيون فيجدنى أدخر له شيئا منه. أتراه ولد عبيط ياخال؟ أم أنه يدبر لتوريطى فى عملية كبيرة؟.

غصبا عنى أنهيت شغلى بهذا الأمر وركنته فى منطقة خفية من دماغى. صرت أتسبب إلى الكسب، وفى كل مرة أقول لنفسى: تكن هذه آخر مرة أتوب بعدها. لكن التوبة ليست سهلة أبدا يابوى، دائما تمنعها ظروف حرجة عن الوصول إلى صاحبها فى مواعيد مبكرة، والإنسان فى العادة يهرب من التوبة دون أن يدرى. فى كل مرة خرجت فيها بفردة جديدة وتوبة جديدة أفاجأ بأن سعر الفردة قد ارتفع من تلقاء نفسه عشرة جنيهات دفعة واحدة. ثم أننى رأيت عجبا يابوى، صدق من قال أن من عاش يرى كثيرا ومن لف ودار يرى أكثر. كل معلم من الصعايدة ذوى العمائم الكبيرة الذين صرت أوصل لهم البنادق يدا بيدا أخبرونى أن لهم أولادا كثيرين مجندون فى الجيش يمدونهم بكل أنواع الأسلحة والذخائر ويرزقون. هم طبعا يغروننى بالإكثار من جلب السلاح لهم حتى لا أخاف.

زهزهت لى الحياة يابوى حتى صرت قادرا على تحقيق كل مطلوب ومرغوب. إلى أن تغلب الوعد والمكتوب، وآن الأوان ليظهر الصحيح من المعطوب، والغالب من المغلوب، والأصيل من المقلوب. ولكن ربك ـ فى النهاية ـ رب قلوب.

كان معى فردتان وأربع علب للذخيرة تشبه علب السكر القوالب، فوضعت هذه الأخيرة فى جعبة ورقية من جعب

الفكاهانية ووضعت فوقها خلقات قديمة، أما الفردتان فحشرتهما بالطول تحت تكة السروال وداريتهما بالجلباب ومن فوقه لبست بالطو من بلاطى الجيش وخرجت كالعادة من البوابة دون تفتيش ومضيت مبسوطا أربعة وعشرين قيراطا أغنى وأضرب بالموال، حتى وصلت إلى محطة «المصحة» فوجدتها كالعادة خالية. كنت سائرا فوق الفلنكات بين القضبان أبغى الوصول إلى السلم الذى أصعد عليه إلى الرصيف، إذ أننى ما قدرت على القفز فوق الرصيف لأن الفردتين حالتا دون رفع ركبتى، فتفطنت لذلك يابوى ونويت الانتباه جيدا حتى لا أكررها والا برز بوز البندقية مرفوعا تحت الثياب. بقيت ماشيا ياخال وقد وقر فى ذهنى أننى خلقت هكذا مصلوب الحيل لا أتعوج ولا أنحنى. وكان سلم الرصيف قد لاح على بعد فركة كعب، ولاح معه ثلاثة من البوليس الحربى من ذوى الكاب الاحمر، وشخصية الضابط واضحة عليهم من نظافة السراويل والسترات واتساقها عليهم. ضربت صفحا عنهم، مالى بهم؟ قدرت أننى ما رأيت شيئا يابوى. حدثتنى نفسى بأنهم ربما يعرفوننى اذ أننى مشهور لدى الكبير والصغير وعموم العسكر وحينئذ قد يستوقفوننى ويسلمون على هذا ليس من مصلحتى فى شىء فملعون أبوهم وأبو سلامهم لست منه فى عوز.

تملكت سلم الرصيف وجعلت أصعد فى ثبات حتى تملكت الرصيف نفسه. وكانوا هم واقفين فى انتظار القطار فمنعت البصر عنهم ناظرا نحو غرفة شباك التذاكر تحت السقف الجملون وأمامها الأرائك الخشبية الخضراء التى ما أن رأيتها حتى طب

قلبى حين تذكرت أننى لا يجب أن أجلس أو أحاول الجلوس أمام أحد لأن طرفى الفردتين سيبرزان فوق صدرى لا محالة.

هى خطوة واحدة خطوتها يابوى، واذا بواحد من الثلاثة الواقفين يتبعنى مناديا: «خد ياولد». فانحط على قلبى جبل من الجرانيت الاسود ياخال، لكننى تجاهلته على اعتبار أننى لست ولدا. إذا به قد صار واقفا أمامى واضعا كفه على كتفى ناظرا فى عينى قائلا: «إنت رايح فين؟». قلت بكل ثبات: «رايح أركب القطار! نازل البلد بإذن الله!». قال: «أنت مجند؟». قلت: «لا! أنا حسن بتاع الشاى! جوه المعسكر! تبع الحاج فرهود المقاول!». زام قائلا: «وإيه اللى معاك ده؟». مددتها نحوه قائلا: «خلقاتى! سوف أعطيها لامرأة تغسلها! وسوف أشترى المونة!». لكن يده ـ تستحق القطع ـ كانت أسرع من جوابى، اذ أمسكت بالجعبة فكأنه قبض على قلبى والله ياخال. فتحها وأمسك علب الذخيرة مطلقا من بين شفتيه صفيرا حادا مخيفا: «أضبط»، ثم أشار إلى زميليه فلحقا بنا وهم من الاندهاش والفرح فى حال. صار يعرض عليهم العلب. ألهمنى الله بكلام صرت أردده:

ـ «والله والله ياسعادة البيه أنا لاقيه فى السكة دلوقت ورايح أسلمه لادارة المعسكر!».

زغدنى فى صدرى:

ـ «انت كداب! انت لسه قايل أنك نازل البلد!»

ألهمنى الله من فضله وكرمه:

ـ «ياسعادة البيه أنت حضرتك شايفنى على رصيف القطار اللى طالع على المعسكر! يعنى لازم أروح المعسكر الأول أسلم الامانة دى وأرجع!».

فما دخل عليه هذا الكلام طبعا. ضحك:

ـ «انت تستغفلنا! أنت تركب من هنا كى تجد مقعدا خاليا! وترجع مع القطار قبل هجمة العساكر على المقاعد!».

صار كل واحد منهم يسألنى سؤلا، كل سؤال يودى إلى داهية كبيرة. والذى طلع على لحظتها: «أنا لقيته وكنت رايح أسلمه! غير كده ما أعرفش!». من أعطاك من لاقاك من سواك من سخمطك؟. ما أعرف ما أعرف ما أعرف.

جاء القطار فدفعنى نحوه وقالوا أركب. قلت: حاضر، ورفعت قدمى لأصعد سلم القطار، فارتفع فخذى، فبرزت ماسورة البندقية تحت الثياب. فعبطوا فى، صاروا يتحسسون جسدى من كل ناحية وهم يصيحون فى استهوال: مهرب! مهرب!. لم يكن فى القطار غيرنا فحمدت الله على انحصار الفضيحة. عادوا بى إلى المعسكر ظلوا يمشون بى بين البنايات وقتا طويلا، وعند كل بناية يتوقفون بى ويدخل واحد منهم فيغيب دقائق ويعود وفى أثره عشرات من الأشباح الصفراء برءوس حمراء وزرقاء تتسلل وتتبصص وتمصمص بالشفاه وتبصق فى اتجاهى لحظتها لم يكن فى رأسى غير أمى وأخوتى والمعلم شنديلى. ولم يرعبنى فى كل ذلك ـ صدقنى يابوى ـ سوى البنت «حنة»، وماذا ستقوله

عنى لو رأتنى الآن فى هذه الوحلة الشنيعة والعياذ بالله. البصقات ترجمنى فى قفاى إلى أن سهل الكريم فدخلنا فى بناية فيها غرفتان متقابلتان، دخلوا بى إلى الغرفة التى على اليمين فقلت بشرة خير أن جاء كتابى بيمينى فلسوف ينجينى الكريم بإذن الله من هذا المنقلب. دفعوا بى فوق بساط وردى مستطيل تحفه قصارى الزرع من الجانبين استوقفونى. فرفعت وجهى عن الأرض فاذا أنا أمام مكتب يلمع كالذهب، والقطيفة الخضراء تكسو سطحه، وفوقه أوراق وتماثيل وطفايات وعلب سجائر. يجلس خلفه رجل عتل غليظ العنق كبير الوجه كرأس أبى الهول فيه الكثير من تقاطيعه، ثقيل الحاجبين أسودهما بارزهما، ومن تحتهما عينان لا تكفان عن التحديق فى وجهى، عريض الكتفين بارز الصدر كبوابة مسجد. كان يتكلم فى التليفون وكلما سمع كلمة بحلقت عيناه فى بغيظ، فلما وضع السماعة واعتدل ظهر على وجهه أنه قد عرف كل شىء ولم يعد فى حاجة للسؤال عن أمرى. خرج صوته كالزئير تحلف اليمين يابوى أن جنينة حيوانات بحالها فى صوته المخيف: «ايه حكايته بالظبط الولد ده؟!». حكوا له ما حدث بالضبط، وبالملى. خفت أن يظن هذا الدرفيل أن سكوتى إعتراف منى بالجريمة، فبكيت صائحا: «ياسعادة البيه! ربنا يخليك ويستر عرضك! أنا مظلوم». ما كنت أظن أن الدرفيل الجبلى يمكن أن يبتسم مثل خلق الله يابوى، أو تبدو عليه مثل هذه الطيبة التى كدت والله أن أصدقها وآكل الطعم الذى فيها، قال فى صوت لا أدرى من أين واتته كل هذه الحنية..

- «معلهش! معلهش! إذا كنت مظلوما تاخذ حقك أربعة وعشرين قيراطا! على كل حال سيبك من الناس دول»

صفق بيديه نحو الواقفين يهشهم، فأدوا له التحية العسكرية واستداروا منصرفين، وبقيت وحدى أمام هذا الرجل التخين، الذى مد بوزه نحوى فى ود كبير، فدهمنى صوت كالريح العاتية: «خد سيجارة»، وأشعلها لى، وصاح: «هات له واحد شاى». وقدم نحوى فلوسا كانت على مكتبه قائلا: «مش محتاج فلوس؟ إطلب مايهمكش! ده احنا بلديات والواجب فوق كل اعتبار!». إنبريت أقول: «تشكر ياسعادة البيه تشكر!» وجذبت نفسا، وحضر الشاى فسمعت صوتا يقول: «إجلس»، فانتبهت ناظرا فى الرجل فاذا هو يقول بالفم المليان: «إجلس»، فترددت كثيرا حتى سمعت الأمر للمرة الثالثة فجلست على طرف الكرسى خشية أن يتلوث جلده من وساخة ثوبى وخشية أن يلتصق ثوبى بالقروح الملتهبة النزنازة فى ظهرى من أثر الضرب بالكرباج والشلاليت والشوم، وتأوهت ياخال من شدة الوجع وانهمرت دموعى ياخال تحلف اليمين كأنها المطر، والرجل يطيب خاطرى ويقول: «إشرب الشاى! إشرب الشاى! قال متخافش! اللى ضربك حياخد عقابه!». وكنت منكسا وجهى فى الأرض لكننى كنت ألمح الناب الأزرق يفح سما فى صوته يؤلمنى يقول لى لا تنخدع يا حسن وإياك إياك. شربت كم شفطة من الشاى وكم نفس من السيجارة ومسحت دموعى بكم جلبابى، فأشعل هو الآخر سيجارة وقال لى:

ـ «إيه بقى الحكاية يابو على؟ قول كل حاجة بكل صراحة! إنت شخصيا مخليكش أى مسئولية بس الجدعنه بقى تنورنا بالحقيقة! عشان نبقى عارفين! إنت خايف الخوف ده كله ليه؟!».

قلت:

ـ «أصل الحكاية ياسعادة البيه أننى كنت ماشيا قاصدا محطة المصحة لأركب منها إلى المدينة كى أشترى التموين وأعود! فصادفتنى هذه البلية مرمية فى الارض وأنا رجل غشيم! لم أعلم أن هذه صناديق ذخيرة لأنها مغلقة بالشمع! وبعدها بخطوات وجدت البندقيتين مرميتين على الأرض ويظهر أن أحدا كان سارقها ورمى بها! قلت فلأسلمها لادارة المعسكر! ولهذا طلعت على الرصيف الذى فى طريق المعسكر! فشاء سوء بختى أن يصادفنى البكوات على الرصيف ولم ينتظروا سماع قولى قفشونى وانهالوا على بالضرب وجرونى إلى هنا بالعافية وأنا ما أستطيع أن أفتح فمى بكلمة!».

أشعل الرجل التخين غليونا من الغلايين الكثيرة المتكومة أمامه، ولاح أنه لم يرض بالاستماع لكلمة واحدة مما قلت فكأننى ما تكلمت. مال نحوى وهبت رياح صوته تحاصرنى من كل مكان:

ـ «شف ياولد! إذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الاشياء فسوف أتركك! تعود فى الحال إلى بلدك وأهلك! سنكتفى بحرمانك من الشغل فى المعسكر! فاسمع كلامى أنا ولا يهمك من أى أحد آخر غيرى! فما أقوله لك أنا هو الذى ينفذ!».

قلت بصوتى الغرقان فى البكاء:

ـ «والله والله ياسعادة البيه يمين أحاسب عليه فى نار جهنم أننى أتكلم الصراحة ولا أعرف غير ما قلت!».

فاشعل الغليون ثانية ياخال، وأحمر وجهه، وهدر:

ـ «اذا قلت لى من أعطاك هذه الاشياء لن تكون متهما بل شاهدا! أفهمت؟!».

قلت:

ـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله! وحق جلال البارىء فى سماه أننى كنت ماشيا قاصدا المحطة فالتقيت هذه البلية فذهبت لأسلمها فالتقانى البكوات فأعدمونى العافية وجاءوا بى إلى هنا!».

أشعل غليونه مرة ثالثة ياخال، نفث الدخان قال كاننى لم اتكلم من الأساس:

ـ «إذا قلت لى من أعطاك هذه الاشياءفسوف أتركك فى الحال!».

بحلقت فيه بيأس، قلت:

ـ «يعنى إذا قلت لك عليه تتركنى حقا!؟».

فاعتدل ياخال وتضاعف حجمه وصار وجهه كسلة البيض ولمع الناب الأزرق فى بياض عينيه المصفر، وصاح:

ـ «طبعا!».

فاشرت إلى العسكرى الواقف ببابه وقلت:

ـ «هذا العسكرى هو الذى أعطاها لى!».

انتفض الولد العسكرى صارخا ياولداه وكاد يقع من طوله وهتف فى فزع:

ـ «أستغفر الله! أعوذ بالله! أعوذ بالله!»

حينئذ ـ وبكل هدوء ياخال ـ ضغط الرجل التخين على زر بجواره فدخل العسكرى السابق فابتدره قائلا:

ـ «العروسة!».

فاختفى العسكرى فى الحال كأنه تلقى أمرا بالفرح يابوى، وعاد بعد برهة كانه الفرح نفسه صحبه اثنان يحملان العروسة. تقدم العسكرى منى وطرح العروسة على وشرع يكتفنى فيها ويتعمد أن يجذبنى نحو مكان بعيد عن المكتب، ثم اذا به يعطى ظهره للرجل التخين ويهمس فى أذنى:

ـ «إياك أن تعترف على أحد حتى لو قطعوا جثتك للكلاب! إننا فى حالة حرب ولابد أن يضربوكما بالنار أنت ومن تعترف عليه!».

شكرته بنظرة عرفان، لست أملك غيرها. إنتهى من مهمة تكتيفى وتركنى للآخر.. وعينك ما تشوف إلا النور يابوى.. فين يوجعك ياحسن ياولد أبو ضب، الكرباج طويل اللسان يابوى وفيه

نار الله الموقدة يلتف حول ضلوعى يمزقها. يتعب الضارب وتنهد قواه فيتوقف متشربا أنفاسه فيبدأ الوجع الحقيقى ينتبه إليه جسدى، ويبدأ صوت الرجل التخين:

ـ «إذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الأشياء ترحم نفسك وتنعتق من الضرب!».

فأرد عليه بنفس الكلام حتى تعبوا من ضربى يابوى ولم يبق فى جثتى جلد يتلقى لسع الكرباج فتزاحمت عليه ألسنة اللهب الحمراء فوق بعضها كالجبل والهضاب فوق جسدى. وسلم الرجل التخين بأنه لا فائدة ترجى من ورائى، فكتب كلاما كثيرا على ورق كثير وشوح به نحوى. فاندفع بضع رجال أشداء يلبسون الأفرولات فدفعونى مقيدا، ألقوا بى فى عربة البوكس فورد، التى مضت تنهب الطريق نهبا حتى وصلت إلى مصر الجديدة وتوقفت عند منزل فخيم قيل لى أنه سراى النيابة. دخلناه، مشينا فى طرقات وصعدنا سلمات ومررنا على غرف، دخلنا غرفة فيها أفندى مهيب صغير الدماغ مفلوق الشعر فى الوسط من رأسه كما الممثل «عماد حمدى» ولد الحلويات ذاك الذى يطلع فى الأفلام كان شبهه الخالق الناطق تقول هو بعينه. ظهر على وجهه انه مرتاح من منظرى يابوى، وانه ـ تقول ـ مستاء لما حل بى وبآدميتى. فلما دفعونى أمامه بعنف كاد يكفئنى على وجهى صرخ فيهم: «ماهذا؟». صحت باكيا: «أنا أطلب الطبيب الشرعى ياسعادة البيه

أنا واقع فى عرضك ياسعادة البيه لقد شرحونى ولسوف أموت بعد هنيهة قليلة». ورفعت ثيابى فعريت جسدى وصرت ألف حول نفسى أمامه وكان القميص يابوى قد التصق بجروح الجلد فلما رفعته نزع سلخات من جروحى المتقيحة فصار منظر جلدى عجبا والله يابوى. ولما واجهت الرجل وجدته مبعدا رأسه إلى الناحية الأخرى لاويا ملامحه من التألم مداريا عينيه بكفيه. قادر ربنا أن يخرسنى لو كنت كاذبا، كانت هذه أول مرة أشعر فيها أن الحكومة يمكن أن يكون لها قلب وهذا ما لم يكن يدور لى بخلد على الإطلاق يابو العم.

بسرعة شديدة تناول الرجل الورق وأشر عليه قائلا كلاما فهمت منه أنه لا يقبل أن يتسلمنى. فنظروا نحوه بغيظ أشد ثم دفعونى زغدا وتلطيشا تحت الحزام، عادوا بى إلى العربة، انطلقوا عائدين إلى سراية أخرى فى مصر الجديدة، فتلقانى شاب فى مثل عمرى وتفحصنى جيدا وعلى وجهه كثير من الزعل الحقيقى، ثم أمر بإحالتى إلى المستشفى العام. واه وا.. أ.. ه يابوى. مكثت فى المستشفى العام أربعين يوما مدة استمرار الحبس. ومن المستشفى رحلونى إلى السجن رهن الجلسة التى سأمثل فيها أمام المحكمة بعد بضعة شهور.

أيام الخلق ستة

الأولة ـ مدرسة الظلام المستنير!

من لم يدخل السجن لم يعرف من الحياة كلها الا نصفها يابوى صدقنى والله، ولم يعرف من طبيعة الخلق الا ربعها بالكثير. أنت يابوى عدم المؤاخذة لا تعرف شيئا وان كنت لفافا ودوارا وما أدراك. لكن تأكد يابوى من شىء هام جدا: اذا لا قدر الله دخلت السجن لسبب من الأسباب فأنت داخل إلى المدرسة الحقيقية التى ربنا ما يكتبها عليك، تغور بكل ما ينتج عنها من معرفة. لكن اذا كان ذلك قدرا مقدورا عليك، ففتح عينيك جيدا والا ضعت فى الأقدام، تفتح عينيك تصبح أستاذا كبيرا فى الحياة، وتخلص من الجنون، تسوق الغباوة، تصبح ممسحة للأقدام..

أيام كانت مريرة ياخال ومليئة بالسواد والهم المقيم. كل المساجين تجيئهم زيارات الا العبد لله كالمقطوع من شجرة. كل المساجين لديهم داخل الزنازين أشياء تخصهم الا أنا ليس يخصنى شىء ولست أحتكم على شىء، فالنقود التى كانت معى صادرها عساكر الشرطة من أول علقة ولم أجرؤ على أن أفوه

بكلمة. مرادى أن أتكسب فى السجن مثلما يفعلون يابوى، فالسجن سوق أشد من أسواق الحرية، بائع الحشيش المسجون شغلته فى السجن بيع الحشيش أيضا، تاجر العملة كذلك، مزيفوها، لاعبو الثلاث ورقات، كل صاحب مهنة قبل الحبسة يشتغل فى الحبس شغلته. التموين يدخل السجن برضاء العسكر وفوق أنوفهم أحيانا ومن وراء مؤخراتهم أكثر الأحايين لكنهم جميعا مرزقون مسعدون ومع ذلك هم يشددون الحراسة على الآخر. عسكر من وبتاع من يابو العم؟! إياك تظن أن فى بلادنا بالذات شيئا يمكن أن يمنعه الحراس، أو عملا يمكن أن يخلصه المستوظفون بدون أن تعطيهم عن يد وأنت صاغر، وطالما أن جميع القائمين على الشغل فى بلادنا يمدون الأيدى حتى وإن لم يخرجوها من جيوبهم فإن ماتسمونه القانون والضمير والعدل مجرد كلام فى كلام يابوى. خذ هذا الكلام من أخيك حسن ولد أبى ضب وقلبه فى دماغك وأنت تعرف أنه حقيقى، اسأل نفسك هل استطعت طول عمرك أن تقضى أى مصلحة بدون أن تبرطل عليها وترشو؟.. فماذا تفعل لو كنت مثلى سجينا وليس فى حوزتك أى شىء ترشو به السجان. معلمو السجن العتاة من فتوات المجرمين والنصابين تجار المخدرات والقوادين أولئك هم حكام السجن يابوى صدقنى والجميع خدم عندهم بالأجر، كل ما يريدون فعله يفعلونه والقرش هو الذى يتكلم، وأنا نفسى محتاج للقرش كى أبر به جسدى المنهوك فماذا أفعل يابوى؟.

قلت : لا عليك يا ولد إن اشتغلت خادما لهؤلاء الحكام الفتوات إتبع الحاكم الفعلى يابوى إن كنت ضعيفا مثلى فى موقف ضعف، ووالله كانت أحلى فكرة: الفتوة جالس فى مكانه وأنا أغسل له ثيابه أطبخ أنظف الزنزانه أسقيه الحشيش أقضى له الطلبات، وما المانع ياخال، اذا كان من هم أفضل منى ممن علمهم أهلهم فى كبريات المدارس وعالى المعاهد يخدمونهم بأموال كبيرة فلا ضير على أن خدمتهم بأكلى وأصبح فى حمايتهم. وهكذا ولفت على المعلم «طريشه»..

تاجر حشيش كبير قوى يابوى، يخرج من الحبس الاحتياطى ليعود إليه كل بضع سنوات. تجارته شغالة فى حى الباطنية من وراء الجامع الأزهر، كالعادة لم تتعطل ساعة واحدة، تموين شربه يجىء اليه كل يوم فى الحبس فى عامود الأكل الساخن نفتحه يابوى فنجد المحمر والمعمر والخضار المطبوخ والأرز المفلفل والكنافة والمهلبية، كل يوم والله يابوى تحلف اليمين كأنه فى المصيف لا ينقصه إلا أن يجىء البحر تحت قدميه مسافرا من رأس البر، فى أيام الزيارات الرسمية تجىء السلة ملآنة بما لذ وطاب من فواكه وسجائر وحشيش وأفيون، كل ما تبحث عنه خارج الحبس فلا تجده بأى ثمن تجده فى الحبس بأقل ثمن. هذا بالطبع يتكلف تكلفة كبيرة يابوى تصل إلى مئات الجنيهات كل يوم والحدق يفهم..

قل أن هذا الرجل المجدع أعجبنى، أحببته والله حبى لكل رجل يكسر أنف الحكومة ويذلها بأى شكل، إنه يشفى غليلى وينتقم لى يابوى. قلت: لابد أن أكيفه على الآخر فالحشيش لا يسلى ولا يكيف. جئت بكوز صفيح كان فى الأصل علبة عصير وجئت بلبابة العيش الساخن وهى نصف ناضجة فعجنتها ثانية مضيفا اليها قليلا من التراب صنعت منها خمس حجارة من حجارة الجوزة وبوصتين قصيرتين تركتها حتى نشفت تصلبت صارت لو خبطها فى جبهة رجل تبطحه. وكنت إنتزع نتفا من قطن المراتب وحشيات الكراسى أصنع منها أشرطة مبرومة أغمسها فى الجاز ثم أخفيها فى مكان خفى من الزنزانة مع غيرها من الممنوعات الصغيرة الحجم، أما الممنوعات الخطرة كالحشيش والأفيون والنقود الكبيرة التى يبيع بها المعلم حشيشه فى السجن فكنت أنا مخزنها، أبرم ورق النقود مع الأشياء فى خوابيرمدكوكة فى بعضها جيدا وملفوفة ببلاستيك الأكياس الناعم الأملس حتى إذا ما لبستها فى مؤخرتى انسابت بسهولة إلى الداخل وأن حزقتها تزفلطت خارجة بكل رقة، كنت ألبس أكثر من خابور، ثلاث أو أربع أدوار فوق بعضها وأكون عارفا بأن الحشيش فى الخابور الاخير ليسهل إفلاته كلما احتجنا لتعمير الدماغ، إذ نفرك السجائر أو الدخان المعسل فوق حجر الجوزة ونشعل الشريط ونمرره فوق الدخان الممزوج بالحشيش ونشفط بمزاج كأننا نشرب على أحسن جوزة لدرجة أن المعلم «طريشه» نوى أن يأخذ هذه العدة معه عند خروجه من الحبس..

بهذه الطريقة وحدها يابوى استطعت أن أمكث فى الحبس الاحتياطى كل هذه الشهور، وأنا كل بضعة شهور أمثل أمام قضاة المحكمة فأظل فى القفص الحديد من باكورة الصباح حتى آخر الجلسة إذ يؤشر القاضى على أوراقى قائلا: يعود كما كان.. فأعود كما كنت يابوى ولا أحد يسأل فى صحة سلامتى والمعلم «طريشه» يصبرنى قائلا إن الله معك، ويعشمنى أنه حين خروجه من الحبس وخروجى بإذن الله سوف يأخذنى لأشتغل عنده نفس هذه الشغلة التى أشتغلها له فى الحبس. إلى أن جاءت إحدى الجلسات ذات يوم فمثلت أمام القاضى حتى انتهت الجلسة فنادوا على فدخلت الغرفة التى يدخلها القضاه فور إنتهاء الجلسة كالخائفين المذعورين من أهل التقاضى. واذا بى أمام ثلاثة من الأفندية كل منهم يكفى لتخويف بلد بحالها وكل منهم راح ينظر فى عينى يقلبنى من فوق لتحت. قال الجالس فى وسطهم وقد ظهرت عليه الطيبة: «ياولد أنت». قلت: «نعم ياسعادة البيه». قال: «أنت لقيت هذا السلاح وكنت رايح تسلمه مش كده؟». صحت على الفور قائلا: «مظبوط ياسعادة البيه! أنا لقيت هذا السلاح وكنت رايح أسلمه!». فظهر الانتصار على وجهه وتراجع منجعصا للحائط صائحا فى الكاتب الجالس بجواره: «اكتب: لقيت السلاح ـ وكنت ـ رايح أسلمه!»، وضغط على كلمة كنت ضغطا طويلا ممطوطا ألقى به الرعب فى قلبى فلم أستطيع فتح فمى بكلمة. وإذا به يطوى أوراقه قائلا: «يعود كما كان».. فعدت كما كنت يابوى وقد أيقنت أننى مكتوب لى لقمة عيش طويلة الأمد فى الحبس،

والمكتوب ما منه مهروب. يوم ذاك جاء المحابيس يزورون المعلم «طريشه» فى زنزانته فتكلموا جميعا فى موضوعى، إنهم فقهاء فى القانون يابوى أحسن من القضاة والمحامين يابوى بل هم أذكى من واضع القانون نفسه. ليتهم ما تكلموا يابوى، لقد كسحونى، كسروا مقاديفى كلها، أفتوا كلهم أن عقابى فى هذه القضية لن يقل عن خمس سنوات، نعم يابوى خمس سنوات هى براءتى فى هذه القضية كما يقولون أما حكمها الحقيقى فالعياذ بالله منه.

الثانية ـ زائر الفرج

لكنها الدنيا يابوى أحوالها عجب فى عجب!..

فى ذات ليلة كنا جالسين كالعادة نشوف مزاج المعلم، إلا وصوت الأقدام يقترب من الزنزانة، فانتبهنا، فما كدنا نشعر بالمفتاح يوضع فى قفل الباب حتى دارينا كل شىء بكل سرعة وتمطرقنا على الأرض كأن شيئا لم يكن. ما أن انفتح الباب حتى اندفع نحونا شاب أشقر الشعر أبيض الوجه مستطيل طويل القامة يبدو أنه ابن ناس وابن مدارس ومن الواضح أنه لم يتعود على الإهانة. انغلق باب الزنزانة فى الحال فبقى الشاب واقفا فى منتصف الزنزانة كى تتعود عيناه على محتوياتها، ثم استدار نحونا متطوحا كالسكران المجهد قائلا: «مساء الخير»، ثم ارتمى على الأرض متربعا بجوارنا، فكشفنا عن العدة من جديد وشرعنا نشوف مزاجنا بعد هذه الخضة الجامدة. وكنت مترددا فى الكشف عن العدة خوفاً أن يكون ضيفنا هذا من المباحث المدسوسين علينا وعلى أنا بالذات، لكن المعلم «طريشة» قرأ فى وجه الشاب أنه متهم بالفعل فى قضية وليس يمثل دورا، ثم أنه

راح يتابعنا فى انبهار شديد ولم يمتنع عن الشرب حين ناولناه البوصة بل أمسكها بحرفنة واشتياق..

حجر فالثانى فالثالث فالعاشر أنهى علينا الشاب حكايته من طقطق لسلامو عليكم. اسمه «وائل عثمان» وشغلته ويا للعجب - إمسك رأسك يابوى - وكيل نيابة، وتهمته تزوير فى أوراق رسمية خاصة بجوازات السفر وهو فى الحقيقة مظلوم فيها ولسوف تنكشف براءته بسرعة. هو بالفعل طيب وبرىء. هكذا قال المعلم «طريشة» من أول ما بدأ الشاب يحكى، والمعلم «طريشة» لا يخطىء النظر أبدا، إنه يعرف ابن الناس البرىء من المجرم من كلامه سلوكه طريقة جلوسه نومه أكله شربه. كان «وائل عثمان» يظل طول الليل يفكر فى قضيته وفى القانون والسيجارة الأجنبية - أليس ابن ناس؟ - مصهللة بين أصبعيه على الدوام. الزيارات تجىء له بشكل متواصل فيها أطايب الأكل يفرده أمامنا كله. لقد أحبه المعلم «طريشة» كما أحببته وصرنا مشغولين بقضيته أكثر من شغلنا بقضيتنا. لكنه ذات ليلة شرب معنا حجارة كثيرة وبدت عليه علائم الانبساط فراح يستمع إلى حكايتى بشغف، كاملة هذه المرة بعد أن كان يستمع إليها نتفانتفا صغيرة. فلما أنهيت كلامى ضحك من كثرة السرور وخبطنى بكفه على كتفى قائلا والإشراق كله فى وجهه: «أنت قضيتك سهلة وبراءة مائة فى المائة». قلت أنا والمعلم «طريشة» فى نفس واحد: «كيف

ياراجل؟». قال: «وأنت فى المعسكر! هل كانوا يفتشونك فى الدخول وفى الخروج؟». قلت: «لا يابوى! أنا لم يكونوا يفتشونى لأنهم عرفونى ووثقوا فى». قال: «أنت لا تقل هذا! إذ أن المفروض أنهم لابد أن يفتشوك وأنت خارج من المعسكر!». قلت فرحا: «نعم ياخال!». قال مشوحا بيده: خلاص! انتهت القضية». قلت: «كيف ياراجل؟» قال: «إنهم فتشوك عند خروجك من البوابة! وهذا معناه أنك لم تسرق سلاحا من المعسكر! إذ لو أنك سرقته لضبطوه فى البوابة عند تفتيشك! ومعنى هذا أنك لقيت هذا السلاح فى الطريق».

تحلف اليمين يابوى أن هذه الكلمة نورت فى دماغى مثل الكلوب فى الفرح قلت: «والله أنها فكرة كبيرة يا بوى! من أين جئت بها يا ابن الناس الطيبين!». قال باسما: «تراك تستطيع أن تشرح هذا للقاضى؟». قلت مرتعشا بالفرحة المنملة: «ربنا معى». قال: «معك محام؟». قلت: «لا والله يابو العم! محامى هو الله!». قال كأنه يسرح بخيالى: «لا عليك! إن المحكمة ستنتدب لك محام يدافع عنك بالمجان! وساكتب لك مذكرة قانونية تعطيها للمحامى أول ما تراه!». قلت وأنا فى غاية العجب: «الله يكرمك ويوقف لك أولاد الحلال! الله يفتحها فى وجهك دنيا وآخره! الله لا يوقعك فى ضيقة ويفرج عنك ما أنت فيه!». فصار يربت على ظهرى فى حنان وصرت أبكى فى غزارة..

«وائل عثمان» إبن أصل صحيح يابوى اللهم زد وبارك. ظل أسبوعا بحاله يطلب ورقا أبيضا وأقلاما وكتبا بعينها يحدد لزواره أماكنها فى دواليب بيته، وأسبوعا بحاله يكتب فى هذه المذكرة كل يوم يكتب صفحة، إلى أن حان موعد الجلسة فأخذت هذه الأوراق معى إلى المحكمة، ووقفت فى القفص الحديدى إلى أن نودى اسمى فصحت كالموج قائلا: «أنا أطلب المحامى الذى تندبه المحكمة للدفاع عنى من فضلها وكرمها علىّ!» ـ وكان «وائل» قد لقننى هذه الصيحة ـ فانسلخ عن مقاعد المحامين رجل عجوز تبدو الطيبة على وجهه، وتقدم منى قائلا أنه محامٍ، فدفعت إليه بالورقات فذهب يقرأ فيها طالبا إرجاء القضية حتى آخر الجلسة، فاستجابت له المحكمة، فجلس منخرطا فى القراءة باهتمام وتقرفصت داخل القفص أتابعه بقلب واجف وهو يقلب الصفحات واحدة بعد أخرى حتى أتمها ورفع وجهه عنها وبدا متحمسا للكلام. ونودى اسمى من جديد فانبرى المحامى يدافع عنى بكلام من دماغه يشبه الكلام الذى يقوله «وائل» بالضبط وقد أكرمه الله من أجلى فانطلق لسانه فى كل واد وقال كلاما كبيرا يابوى رقص له قلبى من الطرب، شرح للمحكمة حالى وغلبى وطيبتى واستحالة أن أكون ذلك المجرم الذى يتراءى للمحكمة الموقرة.. وفى النهاية يابوى لم أصدق نفسى وأنا أسمع صوت الحكم علىّ: سنة مع الشغل! لم أصدق الا بعد أن بارك لى الحاجب والمحامى فرفعت ذراعى صائحا: يحيا العدل!.

الثالثة ـ فولة فى قلب غولة

حاجة تهوس يابوى، الدنيا أمورها عجيبة ولها فى كل يوم تصانيف من تصاريف لا تخطر للبنى آدم على بال. أنا مثلا يابوى خرجت من الحبس يامولاى كما خلقتنى يارب ترزقنى، لا قرش ولا عشرة، الثوب الكشمير والآخر البوبلين والقميص والسروال تسلمتها من عهدة الحبس فلبستها ومضيت فى شوارع مصر المحروسة أتنسم عبير الحرية أتمنى أن أكون فى عشرات الاماكن فى وقت واحد وأرى عشرات الناس فى لحظة واحدة. كنت جائعا فشبعت وتعبا فاسترحت ومريضا فشفيت كل ذلك من هواء الشارع فحسب، أى والله يابوى، وبالامارة كان يخيل إلى أن كل من يلقانى يجب أن يقف ليسلم على وأسلم عليه فى اشتياق ولست أفهم من أين جاءنى أن كل أهل المدينة كانوا على علم بمجيئى وأنهم تبعا لذلك لابد أن يفاجئوا من رؤيتى فى الخلاء طليقا، إن هو إلا إحساس عجيب قاتله الله يابوى، إحساس بأننى قد صرت مبصوما ببصمة السجن حتى وإن صرت حرا..

غير أننى ما لبثت حتى جعت وصرت هفتانا أتطوح فى مشيتى كخيال المآتة المخلوع من الأرض تلعب به الرياح مشتهاها. شبعت من اللف فى شوارع المدينة وحواريها التى كانت أوحشتنى وفى النهاية صرت أتمنى رقعة من الأرض أتوسد فيها ذراعى وأسلم روحى للكريم الذى لا يغفل ولا ينام، حيث لا يصحينى بالأمر سجان ولا يتآمر على جاويش أو خفير أو ديدبان. لكن أين هذه الرقعة يابوى؟ هذا حلم كبير جدا يابوى، فى هذا البلد لا يتحقق مثل هذا الحلم، إنه لا يتحقق الا فوق مصطبة دارنا فى بلدتنا حيث أمى وعين الله ساهرة..

«الرجل تدب مطرح ما تحب» هذا مثل من الأمثال شهدت به أرجل البشر على مدى الأزمان ياخال. الذين قبلنا قالوا وقولهم حق مدون فى صحائف الأيام يابوى. أنا مثلا، ما الذى عاد بى إلى حوارى مصر القديمة رغم أننى لاقيت فيها الهوان وشربت منها كاسات الذل والمرار. المؤكد يابوى أننى لى فيها ضلع كبير هو المعلم «شندويلى» أحب ان أراه ويرانى، ولى فيها أيام حلوة وليالى أنس وأن كانت قليلة فإنها لا تغيب عن البال أبدا..

أمر عجيب والله ياخال، لقد كنت مقبلا على مصر القديمة وكلى سرور وابتهاج كأننى فى سكة المرواح إلى بلدى وأهلى، ففى أول النهار كنت أسير بلا هدف أترك الحوارى ترفعنى إلى الشوارع والشوارع تدلقنى فى الميادين والميادين تدهورنى وقتا لتسلكنى بعده فى اتجاه غير مقصود. أما مصر القديمة فإننى

قصدتها قصدا دون أن أدرى وترسمت طريقها حتى أشرفت عليها قبيل العصر بقليل.. فمالى كلما اقتربت منها ودخلت فى عمق حواريها ينقبض قلبى كأن يد مارد شيطان تفعصه..

وا.. ا.. ه يابوى، أنا أقول لك السبب ولكن، لا داعى، فضك من هذا السبب فربما أكون كاذبا فيه، فليس يعلم بسر القلوب غيره سبحانه وتعالى، إنما الذى أنا متأكد منه ياخال أن حوارى مصر القديمة وشوارعها راحت تلقى فى وجهى بالليالى السوداء الكالحة جماعات وفرادى كلما أوغلت فى دروبها طلعت على سود الليالى تفح فى شحوب المساء تذكرنى بنفسها يابوى تتعرف على، تكاد الأحجار المرمية على نواصى الحارات تهب واقفة وتقبل نحوى مسلمة ومعانقة بالأحضان تقول لى أيش حالك يا حسن ليس على وجهى سوى ابتسامة أشعر أنها جفت من طول ما أومأت لليالى السود الكالحة مذكرا إياها فى رقة بأننى هو، نعم أنا هو، ذلك الذى أحبك بمآسيك وبلاويك وفضائحك وشقاواتك المعذبة. المصيبة ياخال أن ليلة من كل هذه الليالى التى تعرفت عليها وتعرفت على بين حوارى مصر القديمة وشوارعها لم تتكرم وتدعونى للبقاء فى حجرها حتى الصباح يابوى، لم ينطق صوت واحد يقول تفضل ياحسن على العشاء أو حتى على شرب الشاى أو حتى تفضل ولو على سبيل برو العتب.. رضينا بالغلب ولكن الغلب لا يرضى؟!.

قلت والله لا أرضى بذل أبدا، ومضيت لا ألوى على شىء حتى خلفت مصر القديمة وراء ظهرى وصرت فى إسطبل عنتر. تذكرت فجأة أننى ما مررت على المعلم «شندويلى» وكان الواجب أن أمر يابوى فالمعلم «شندويلى» كله واجب، وهو القلب الحنون الذى كنت أضمن عنده غدوة كبيرة ونومة خلية البال هنية لكنه المخ الصعيدى يابوى، تربس تربسة شديدة ولم يشأ أن أعود كل الطريق الذى مشيته. يخيل إلى يابوى أننى صعبت على نفسى أن يرانى وقشف السجن على وجهى وكل جسدى وعلى لسانى. ثم طرأ الخاطر الكبير على دماغى يابوى قائلا: وما الداعى ياأبا على أن يعرف المعلم «شندويلى» أنك كنت فى السجن أصلا، لو علم ربما يستقلك فى نظره ولا يعتمد عليك فى سر، وقد يتسرب الخبر منه فيعلم به ولد بلدى وتكون الفضيحة فى بلدتنا. قلت: ياما أنت كريم يارب، ومضيت أخترق شوارع اسطبل عنتر..

فى اسطبل عنتر مقهى صغير خفيف الدم يقع على ناصية صغيرة لكنها بارزة، صاحبها يرص كراسيه القش المفعصة ودككه الخشبية الملفقة فى أرض الشارع الذى لا تسير فيه الناقلات، يجلس فى هذه المقهى خلق كثيرون من باعة السمك السريحة وأنفار شغل الفاعل والشيالين والتباعين. لى فيها ولد صديق يمسح الأحذية فى الشوارع بصندوق صغير ويتخذ من هذه المقهى موطنا ليليا حيث يلعب القمار مع شلة من أصيع خلق الله. مثلى اسمه «حسن»، غير أن أهله يدلعونه فيطلقون عليه أسم

«ميمى». دلع الفقارة يفقع المرارة كما يقول المثل والاسم غير راكب عليه لكنه يركب عليه فقط فى قهوة «بعره» هذه وفى العشش التى يسكن مع أهله فى واحدة منها على بر الجيزة نحو جزيرة الذهب، حيث كل سكانها معفرين صدئى الوجوه وبينهم «حسن» هذا أبيض الوجه على جبينه خصلة شعر كأولاد الذوات. له ثلاثة إخوة صغار يشتغلون مثله فى مسح الأحذية ولا يرجعون الدار إلا لَمَماً. وإنى لأحب هذا الولد لأن فيه لطشة الجدعنة يفعل أشياء يعجز عن فعلها رجال بشوارب غليظة وحافظات نقود منتفخة، لا يهمه أى شىء. هو الآخر يحبنى لله فى للّه وكان يتعارك من أجلى مثلما أتعارك من أجله اذا وجد أحدنا الآخر فى زنقة.

الولد نط من الفرح بمجرد أن رآنى والله يابوى وشالنى عن الأرض: «أزيك يا حسن أهلا وسهلا عاش من شافك». جاء الشاى فشربناه وحدنا على كوعة الرصيف المقابل وقام «ميمى» فاستلف علبة سجائر صغيرة وضعت بيننا. قال: «أنت قادم من البلد؟». قلت: «أنا قادم من السجن مباشرة إلى هنا!». نهض واقفا فى الحال يقول: «طب يلا بينا»، ثم سحبنى إلى كورنيش النيل بعد ميناء أثر النبى، فعبرنا النهر بالمعدية ومضينا على الشاطىء قليلا حتى وصلنا إلى عشة بين حوالى مائة عشة مبنية بالطين والبوص على مساحات عريضة بين عشب وأشجار كثيرة.

الرابعة ـ عيان يضاجع ميتا

فى وسط دارهم البـرحـة حكيت له حكاية السـجن من طقطق لسلامو عليكم. احتـفت بى أمه العجوز لما علمت بالحكاية وذبحت لنا بطة كـبيرة سلقـتها فى الحـال مع حلة أرز ومرق. أمـه كانت طيبة وتشـبه أمى لحد كبير يابـوى، قالت وهى تضع الأكل أمامنا بحب: «اقـلع هدومك أغـسلهـا لك وأزيـل عنهـا رائحـة الأيام المشئـومة». خلعت ثيابى وخلع ابنـها ثيابه، وبقـينا فى السراويل فحسب متحررين من الخشـية على الثياب فنزلنا على الأكل حتتك بتـتك، شفطنا مـن المرق ما كـان يتصـبب فى الحـال عرقـا لذيذا. مصمصنا عظام البطة حـتى لم تعد للقطط والكلاب بعدنا أى بركة تراجعـها. وبعد الأكل شـربنا الشاى دورين وأتينا على بقيـة علبة السجـائر. تمطرقنا على الأرض نستشـعر الرخاوة نسـتكمل بقايا الكلام حتى سطـلنا الهواء الخريف فـغطسنا فى نوم عمـيق، حتى الولية هى الأخرى..

لولا أن البـول حصرنى فـحلمت أننى أتبـول ما كنت صـحوت كانـت الدنيا تبـدو لى لحظتهـا وكأننا فى منتـصف الليل، وأنوار

مصر تلعلط من كل ناحية فوقنا وتصب فى حوش الدار شيئا قليلا من لألئها. لكزت «ميمى» فتقلب وفتح عينيه قائلا كان الكلام لم يتوقف بيننا بعد: «هيه! وبعدين!». قلت: «أريد أفك حصرا». أشار إلى تعريشة فى ركن الحوش البعيد فعرفت أنها الكنيف فاتجهت اليها فقضيت حاجتى واسترحت وبحثت عن عقب سيجارة أشعله فوجدت «ميمى» يحتفظ بسيجارة قدمها لى مشتعلة فتربعت لبعض دقائق وبضع أنفاس ثم طلبت ثيابى لألبسها فذهبت الولية لتأتى بها من على حبل الغسيل فلم تجدها، لم تجد لمحتويات الدار كلها أثرا، حتى الحلل والوابور والأكواب. صوتت الولية بكل عزمها، فايقنت أنه النحس يابوى قد لحق بى فى هذا المكان الهادىء. صرنا جميعا فى ربع هدومنا بل فى كامل عرينا، إذ ليس من خيط فى إبرة يستر عورتنا اذا أردنا مغادرة عتبة الدار، وقلت لابد أن شيطانا يترصدنى يابوى.

شىء إلهى قال فى نفسى: كفاك هذا يا حسن وتأدب وقم من هذا المكان. شعرت بالرعدة فى قلبى والله ياخال، فطويت وجهى عن السماء وقفلت جسمى على نفسه كأن السجن قد تقاربت جدرانه على حتى التصقت بجسدى وتشكلت بعريه وقلت للولية فى صوت يقطر البكاء منه: «والله ياولية اننى لا أعرف ما أفعله الآن فدبرينى». طوت الولية وجهها عنى ومسحت دموعها الهاطلة وتمخطت ثم قالت: «تدبرها الطاهرة أم العواجز أم هاشم ابنة بنت

رسول الله». صحت جاعرا كاننى أشتم وأردح: «مدد ياست زينب! ورينا شطارتك! أكيد لك الدلال على ربنا!». نهضت الولية بقلب كسير وصارت تروح وتجىء حائرة تشد فى ذيل ثوبها وتستنزل اللعنات على من فعل هذه الفعلة الخسيسة فينا: «إلهى ما يوعى يبات! إلا هى يتقطع جسمه تحت عجلات قطار! إلهى يصرف أضعاف أضعاف ثمنها على الحكماء ومر الدواء وشر البلاء!»..

استوقفتها قائلا كانها المسئول الأكبر عن زنقتى هذه الشنيعة: «كل هذا لن ينفع ياخالة فدبرينى!»، فاشاحت فى أسف. وبعد صمت طويل كظيم نهض «ميمى» ومضى خارجا بطريقة فهمت منها أنه سيبحث عن اللص ويجىء به من تحت طقاطيق الارض. لكنه غاب يابوى. وطال صبرى وأنا أجلس تارة وانهض تارة أخرى كالسبع الهائج أريد أن أفتك بالولية وأهدم هذه الدار على نافوخها النحس، وهى فى كل مرة تنجح فى تهدأتى بسياقها للنبى وللولى وآل البيت كلهم مما يعجزنى عن التمادى فى الهياج خشية الغلط فيهم هم الآخرين وهم شفعائى عنده سبحانه على ما صدر منى تجاهه من لحظة فائتة. لكننى ياخال كلما تذكرت أننى خرجت اليوم من الحبس إلى حبس من صنف جديد تغلى الدماء فى عروقى كيفما يغلى الماء فى براض الشاى ويتفرتك من الغليان..

غابت الولية قليلا ثم عادت وفى يديها كوب شاى ثقيل رغم ضيقى الشديد بمنظره فإننى انشرحت قليلا لمرآه، الخاطر الذى جاءنى لحظتها أن أطيح به وبيديها فى الهواء فليحرقها الله. قالت الولية أن الجيران سمعونى وعرفوا كل شىء وحزنوا من أجلى وأن أبنها هناك يتباحث معهم فيمن يكون السارق الجبان، وانحنت ووضعت كوب الشاى بجوارى. منظرها صعب على يابوى فسكت. وبعد وقت قصير وجدت يدى تمتد. على كوبة الشاى فإذا للشاى طعم عبقرى يابوى، سرى منه الخدر فى أعصابى فشعرت أننى استرحت. بحثت بعينى عن الولية فلم أجدها، فقمت أتمشى من جديد ولكن فى هدوء هذه المرة، أحاول الوصول إلى بر ولكن بدون فائدة يابوى، لا طريقة ولا حل والدنيا مثل خرم الإبرة وأنا الخيط يريد أن ينفذ منه فى حلكة الظلام. الدموع تهطل مدرارة على خدى وأنا أحس من لهيب غليانها أن الله غاضب على هذه الأيام وأنها أيام نحوس بالنسبة لى ولن يرضى عنى سبحانه إلا بعد زوالها وهو وحده يعلم متى تزول لكن العشم فى رحمته قريب. إذا بالولية داخلة تحمل بين يديها خرقة كالحة تقترب بها منى قائلة أن الجيران ناس على باب الله مثلنا وقد فتشوا عن ثوب قديم عندهم يمكن الاستغناء عنه فلم يجدوا لأن كل ثيابهم فى الأصل قديمة ومعظمها خليع مما استغنى عنه آخرون لكن أمهم الطيبة دخلت القاعة فرأت عجينها مغطى بهذا الثوب فنظرت فيه فوجدته لا يزال صالحا لتغطية الجسد ففرطت الأم فى عجينها

واستغنت ـ كتر خيرها ـ عن هذا الثوب فعساه ينفع أو يقضى مصلحة.

غصبا عنى تناولته يابوى، رحت أقلب فيه وأتحسر على حكم الزمن الجبان وفعل الأيام فى. الثوب خشن يابوى، ملىء بحبيبات قطع العجيب الناشف ورائحة النخالة والتراب وخراء القمل والبراغيث والصراصير الا أنه متماسك النسيج وليس به إلا رقعة واحدة من ناحية الكتف وبقعة عريضة جدا من زيت الطعام شربت من الوسخ والتراب ما شربت ولا يزال ملمسها طريا كجلد الأفاعى. لكننى لبسته يابوى، وضعته على كتفى وأدخلت أكمامى فيه وطرحته على بدنى فاستقام كاسيا حتى ما فوق الركبتين بقليل. قلت: نحمد الله على ذلك، وقلت للولية: سأرجع بعد قليل وقولى لابنك ينتظرنى فسوف أبيت عندكم سواد الليل.

الخامسة ـ الله أكبر لكن الليل كافر!

أخذت الباب فى وجهى ومضيت..

تملكت شاطىء النيل وبقيت ماشيا لا أعرف لى وجهة أخرى، حتى لاح لى من بعيد ضوء خافت محمر، كان يزداد احمرارا وقالقا كلما تراجعت بيوت المدينة وأحاط الظلام كل شىء. قد عرفته يابوى، تذكرت أننى أعرفه، أعرف أن هذا الضوء يقوم أمام خص على هذا الشاطىء يسكنه خفير وأولاده، إذ أن هناك من يملك هذه الأفدنة الكبيرة من طرح النهر قد زرعها أشجارا صغيرة لا أحد يدرى ما هى بالضبط حتى خفيرنا، وجاء لها بماكينة مياه وبهذا الخفير يحرسها، تذكرت أن اسمه «عم دهب» وأنه يخفر هذه الأشجار وهذه الماكينة منذ سنوات، فى النهار تراه متردداً على أسواق السمك والفاكهة يداعب التجار ويتحدث معهم حديثا وديا طيبا، وهو مشهور بينهم. قلت: لا مفر ياعم دهب! أنت الآن الذى أمامى وقد جاءت الطوبة فى المعطوبة هذه المرة ولكن ماذا أفعل! أنت على الأقل تستطيع التصرف أما أنا فلا أستطيع شيئا مطلقا! فدعنى أسرقك بالطيبة أو بالغصيبة بدلا من قتلك أو قتل روح أخرى!..

أخذت اداري نفسي وأظهرها كلما اقتربت من خص الرجل. كان صوت أم كلثوم يصدح مغنيا هلت ليالي القمر ـ مع أن الظلام كان دامسا. فلما حاذيت الخص من جانبه الأيسر داريت جسدي في ضلعه ونظرت فإذا بالراديو ماركة صوت العرب معلق في مسمار في جدار الخص، وإذا بـ «عم دهب» وزوجه وأولاده نائمون على الشاطئ أمام الخص كالسطيحة ،هم يتبارزون في الشخير كأنهم يهزءون بصوت أم كلثوم، همست قائلا: معلهش ياسيدة الغناء ياآنسة فلسوف أثار لك الآن. ومددت يدي فأغلقت الراديو، فساد سكون كبير سرعان ما احتلته أصوات الضفادع والصراصير وصوت الشخير. تحسبا للموقف صفقت بيدي تصفيقة واهنة قائلا بصوت أشد وهنا: ياجماعة ياللي هنا. فلم يجاوبني سوى الشخير، فتسللت على أطراف قدمي ودخلت الخص، لأرى ثياب الرجل وزوجه وأولاده معلقة على مسامير في الحائط فلممتها كلها ولففت فيها الراديو وكل شيء وجدته. وتسللت خارجا أمشي على الشاطئ في هدوء وسرعة شديدين وأنا أقول: استر يارب.. حتى وصلت إلى دار صاحبي «ميمي» والفجر يقول: الله أكبر.

في دخلتي كان صاحبي يتعارك مع أمه يوبخها على نومها والولية لا تزال تستنزل غضب السموات كلها على الذين فعلوها وعيشوها هذه الليلة الكحلاء النحس التي دخل الحرامي في أعقابها فقششهم تقشيشا. طرقت الباب ففتحت لي وشهقت لما رأتني: «لقيت الحرامي؟». قلت: «نعم!»، فهب صاحبي وأقبل

مهرولا: «كيف؟». دفعتهما معا إلى صحن الدار مغلقا الباب خلفي بالترباس، وقلت للولية وأنا أفك الصرة الكبيرة: «هذه حلل وأطباق ووابور بدلا من الذي ضاع منك ياخاله! لعل النحس يزول عنك! وهذه ثياب لك أحسن مما سرق! أما أنت ياصاحبي فهذا ثوب لك أجدد من الذي سرق! وهاك فانلة صوفية باكمام جزاء لك على كرمك معي! أما هذا الجلباب الصوفي المعتبر وهذا الثوب البوبلين الفخيم وهذا الصديري الشاهي ـ بكل ما في جيوبه ـ وهذه الفانلة القطنية وهذا السروال وهذا الحذاء وهذا الراديو فإنها جميعا لي ياخال! الله الله على الجد! والجد الله الله عليه!»..

• قال الولد وأمه في نفس واحد: «حلال عليك ياعم! والله إنك لتشكر!». ونظر الولد في عيني قائلا بلهجة موروبة غير سالكة: «عملت كيف يا ابو علي؟». حاذيت ظهر كفي بفمه وشطخت فيه: «لا شأن لك! أشغل أم بحلقة!». إعتدل الولد قائلا: «شغل طبعا! شغل!»، ثم نهض من فوره فارتدى الفانلة والجلباب فظهر كأولاد الناس وإتفق في الحال على أن تقطبها أمه من الذيل والجنبين مقدار ثلاثة قراريط، ثم خلعه ورمى به لأمه، التي تلقفته وفي الحال راحت تبحث في عقدة منديل رأسها عن ابرة الخياطة، وعاد صاحبي يثقب الصديري بنظرات كالحة صايعة، خاصة بعد أن سويت الصديري على ضلوعي فكأنه على مقاسي بالضبط.. ولقد راح قلبي يرقص تحت ثقل المحفظة الكبيرة التي كانت في جيبه يابوي، أشبه بمحفظة تجار الحبوب والأقطان يابوي، وكنت أؤجل فتحها لا أعرف لماذا ياخال. بسرعة سويت الجلباب البوبلين على

جسدى ومن فوقه الجلباب الصوف ثم الحذاء فبدوت كشهبندر التجار فى زمانه، رحت أخطو وأعود مجربا المشى رافلا فى ثمين الثياب فوجدته غاية المراد من رب العباد حقا يابوى، وعذرت الناس فى تكالبهم على ذلك وتذكرت قول أحد الائمة لعله «أبو حنيفة»، إذ يقول على لسان عمى الفقيه الكبير: «تقمشوا بثمين الثياب يحترمكم الناس!»، يومها قال أحد المعترضين الاذكياء على عمى الفقيه: «دعك من هذا ياسيدنا فأبو حنيفة كان يروج للقماش باعتباره تاجر أقمشة بالوراثة!»، وشخط فيه عمى الفقيه وطرده من مجلسه.. طب ما قولك الآن يابوى فى أننى قد صرت متحيزا لأبى حنيفة فى هذا القول؟ صحيح أن الإمام أبا حنيفة لم يحل لنا مشكلة الفلوس التى سنشترى بها هذا القماش الثمين ولكن الذى صار مؤكدا لى الآن هو أن لبس القماش الثمين هو رفل النعيم حقا، فاللهم اوعدنا به..

قطعت الحوش فدخلت التعريشة الكثيفة موهما أننى سأفعل مثلما يفعل الناس، وجلست، وجلست فعلا على الملاقى بعد أن حللت سروالى فاذا بى بالفعل كنت أريد ذلك فمضيت أفعل ثم انتهزت الفرصة وأخرجت المحفظة بقلب واجف ويد منتفضة كأننى أسرقها الآن فقط، فتحتها وانتهكت جيوبها بسرعة فاذا هى تحمل خمس ورقات بخمسين جنيها وسبع جنيهات فكة وخاتم فضى مكسور وبعض أوراق صغيرة مطوية. خرجت يدى بثلاث جنيهات مطوية ثم أطبقت المحفظة فطرقعت كبسولاتها بلذة

وأعدتها إلى جيب الصديرى. لمحت ظل صاحبى يتلصص على من خلف باب التعريشة الصفيح، وبحثت عن ماء فلم أجد فمسحت مؤخرتى بطوبة ونهضت رابطا سروالى وخرجت إلى الحوش ملاحقا صاحبى الذى كان يسرع لينفى عن نفسه شبهة التجسس على، قبضت على ذراعه وبالاخرى عرضت له الجنيهات قائلا: «وجهك فقر! هذا كل ما وجدته! خذ»، ونزعت جنيها أخضر سمهرى القوام عريض المنكبين يقف على صدره وجه أبو الهول فما رآه صاحبى حتى وقع مغشيا عليه من الفرح، فصرت أدفعه ببوز الحذاء فى جبينه وذقنه ليفيق وهو مندمج فى التمثيل يرمى جثته يمينا وشمالا ويشهق شهقة طلوع الروح كلما فتح عينيه ورأى ورقة الجنيه فى يدى. دفعت بالجنيه فى صدره ومضيت قائلا: «دعنى الآن أذهب إلى حال سبيلى قبل أن يطلع النهار فتحدث فى الأمور أمور!». فمضى معى نحو الباب بالفانلة والسروال وعانقنى، فحضنته، ولحقت الولية بى عند الباب فاحتضنتنى وقبلتنى فى جبينى قائلة: «مع السلامة يا ولدى! الله يسهل لك ويفتحها فى وجهك ويبعد عنك أولاد الحرام!». فاستهدى قلبى خيرا بهذا الدعاء، وقلت والله أنها دعوة تساوى عندى أضعاف ما أعطيته لها.

وخرجت، فمضيت أخرم فى طرقات متوغلة فى بر الجيزة أمشى بخطوات ثابتة واثقة وإن كان قلبى فى صدرى كبندول ساعة المسجد ياخال.

السادسة ـ الهروب من قرص الشمس!

أدركتنى الشمس واقفا على محطة الجيزة فى انتظار قطار الصعيد. فبقيت نافرا من قرص الشمس مزورا عنه أحاول أن أتلاشى رؤيته لوجهى. حتى جاء القطار فركبته فظل القرص يطاردنى من شباك القطار يترصدنى من سمائه ويسرع فيسبق القطار بأميال، وينتظره ليشده، فكأنه يبحث بين عموم هؤلاء الركاب عنى وحدى، يشدد لهيبه، يظهر أنه سيستندل معى ويشى بى للركاب، يفضحنى الفضائح السبع كلما أفحمته بإغلاق هذا الشباك يابوى هب هلف من الجالسين أمامى وطلب رؤية المزارع والخلاء والضوء الصباحى الدافىء الحلو، يعطينى الهلف دروساً ومواعظ فأفتح الشباك رغما عنى وشىء الهى فى نفسى يقول ياولد إقصر الشر ولا تتشابك فى خناقات على الصباح فاخز الشيطان وأوصل إلى أهلك على خير. أغمضت عينى فى وجه الشمس وتذكرت الراديو ففتحته فانطلق صوته برقصة ساحرة كان الكون بجميع أركانه يرقص ويمزك مع شادية وهى تغنى: «يانور عينيه وأكتر وأكتر شويه يا أغلى عندى م الدنيا ديه» فتطلع وراءها الموسيقى هاتفة مشخللة ودماغى سابح فى بحر

ذاك وأمى تحضننى مغنية نفس الكلام على نفس الموسيقى، ثم تمنيت لو أن البنت «حنة» بنت أبى سكين هى التى تغنى لى هذه الغنوة وصوت الكمسارى يدخل فى هذه المزيكة صائحا فى غلظة: «أنت ياخويه ياللى هيمان فى الخيال تبتسم! النبى تبسم! لكن فين التذكرة!»، فصحوت مبتسما ووضعت يدى فى جيب الصديرى الصغير المعد للساعة فأخرجت التذكرة جديدة خضراء سميكة فاخذها الكمسارى وقرضها بالكماشة وأعادها إلى فأعدتها إلى نفس الجيب وقد داخلتنى نشوة إذ أدركت حلاوة أن يكون للمرء صديرى كهذا لاشياء كهذه فيا للأبهة يا ولد يا ولد أبى ضب والله صرت الآن رجلا محترما ولو على قفا الآخرين يهز لك الكمسارى رأسه بالتحية. ثم أن الكمسارى دخل مع الهلف الجالس قبالتى فى كلام وحديث فهمت منه أن هذا الهلف لم يقطع تذكرة ويريد قطعها الآن ويناكف الكمسارى ويساومه والكمسارى يقول له يا بجم. تكيفت يابوى من حلاوة أن يكون مع المرء نقود يهينها بدلا من أن تهان نفسه... عندئذ يا بوى سخرت من قرص الشمس واقتنعت أن له مهمات أخرى كثيرة وأننى لست فى حسبانه فاضطجعت ممددا منصتا إلى صوت الراديو. وكان فى جيب الصديرى علبة سجائرها مفعصة هى بقايا سجائر «عم دهب»، وكانت بعض سجائرها مقلوبة على وجهها فرجحت أنه يميزها عن غيرها إذ هى محشوة بالحشيش لابد، غير أننى لم أتذكر ذلك ولم أنتبه اليه إلا بعد أن دخنت آخر سيجارة من المقلوبة، سرح

دماغى مع الراديو، شىء مليح والله يابوى، مليح قوى قوى، هذا الشىء المسمى بالراديو، يصدح بالغناء والكلام والموسيقى والقرآن والتشخيص والمسخة وكل شىء، قال الرسول عليه الصلاة وأتم السلام: من علامات الساعة أن ينطق الحديد وها هو ذا الحديد قد نطق وملأ الدنيا زيطة وزمبليطة ولم تقم الساعة بعد فمتى تقوم القيامة؟ وما المقصود بهذه الساعة يابوى؟ إنها ساعة القيامة بالطبع ياخال، وما القيامة ياخال؟ ما القيامة التى ينتظر أن تحدث ويكون نطق الحديد علامة من علاماتها؟ عقلى يحدثنى يابوى أنها قيامة الخلق! يقومون ليفعلوا شيئا كبيرا ياخال! يقلبون الدنيا مثلا فيجعلون أعاليها أسافلها لتتنفس خلق طال انكتام أنفاسهم وليجرب آخرون انكتام الأنفاس!؟ وإن من يكتم أنفاس الخلق يقوم الخلق عليه ذات يوم فيفكوا قيود السجن عن الهواء الذى استلبه فيمرح الهواء فى فراغاته الحميمة يعانق الخلق ينبت الزرع ترقص فروع الشجر تتبختر الأنفاس تنزل غيثا يهمى على الخلق بالحياة!! فى ظنى يابوى أن الرسول عليه السلام قد صدق وأن القيامة سوف تقوم حتما قسما عظما لكن حين يؤون الأوان لينطق الحديد ـ هذا الحديد الناطق ـ بكلمة السر الحقيقية! التى لست أعرفها بالضبط يابوى!.

شيئا فشيئا راح صوت الراديو يشحب وينداح ويهزل، فتذكرت أنه يعمل بالحجارة البطارية مما يباع لدى البياعين فى سوق العتبة وسوق غزة والدكاكين البندرية. اغتممت لما تذكرت أن

حجارة البطارية هذه ستكلفنا كل يوم والثانى، وازددت غيظا لما تذكرت أننى لا أعرف كيف تنزع البطارية القديمة وتركب الجديدة. خفت أن تنفد البطارية قبل وصولى إلى العيال فيصير الراديو مجرد صندوق غير ذى قيمة. أغلقته وركنته فى حجرى محلقا عليه بيدى واستسلمت للأفكار: ماذا ستفعل يا ولد؟ غدا أو بعد أن تنفد وتبقى أنت على الحديدة وتعود ريمة لعادتها القديمة. شىء إلهى قال لى: يا ولد سلمها لله فليس من المعقول أن يعمل هو عقله بعقلك الصغير ويمسك لك على الواحدة، إنه الأب الحنون ولابد أن يرضى عنك فى يوم من الأيام ولكن بشرط أن تقدم أنت فروض الطاعة والولاء يا حسن كما يقول عمى الفقيه الكبير، وعموما فانه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وإن شاء أن يعزك فسوف يفعل أو يذلك فالأمر بيده، ولكن، معلهش يارب.. معلهش يعنى بس فى ذى الكلمة التى أوجهها اليك الآن بقلب صاف ونية خالصة: كيف أتوب يا بوى والفقر والعوز يلاحقانى أينما سرت؟! مر الفقر والعوز أن يحلا عنى ويرحلا من تحت أقدامى! أو فمر أمى واخواتى أن يقفلوا بطونهم ويدفنون عريهم تحت التراب الوجيع! اصدر أمرك إلى كل ثقب إبرة فى جسدى أن يتنازل عن كل مطلوب وكل مرغوب! حينئذ ـ يارب ـ يصبح فى مقدورى أن أقول لك أن توبتى نصوحا ونهائية عن كل فعل يغضبك أو يؤذى عبادك الصالحين! أننى واثق يارب أنك سبحانك قادر على كل شىء وما أظن أن هدايتى أمر يصعب على قدرتك لكنه مفتقر إلى مشيئتك..

الدموع صارت تنهمر من عينى يا خال، انهمرت كما المطر حتى ارتجفت من شعور بالبرد القارص رغم اشتداد صهر القيظ الماشى لصق شباك القطار. كلما جففت الدمع يزداد انهمارا كانه البئر الزلال كلما أخذت منه يفيض ويمتلىء. شىء إلهى فى نفسى يقول: ابك ياولد مشتهاك ولا تترك فى مخازن الدموع قطرة واحدة دع كل المواجع التى ادخرتها فى الحبس أمام الرجال وفى التلطيم فى سود الليالى تنز وتعصر كل قيحها فلربما يسكن الوجع إلى حين أو إلى الأبد..

وهكذا ياخال بدأ غسيل عينى يجف شيئا فشيئا وبدت الدنيا أمامى*زاهية مخضوضرة عليها يلمع الندى.. فشعرت أن أرض الحبايب قد هلت منذ بضع محطات سابقات فصرت أستنشق ريح محطة «صدفة» التى تحمل فى ثناياها ريح دارنا وأمى وأخوتى. قمت فسويت طوقى وأصلحت قفاى ونفضت حذائى وسحبت من الرف جعبة ورق مطوية على خمسة كيلو من فاكهة مصر الطيبة اشتريتها من فاكهى فى قفا المحطة فملأت الجعبة بعنب ورمان وخوخ وتفاح مما يشتهى العيال ويسمعون. تأبطت الجعبة برفق ياخال، تماسكت فى عامود الباب أترقب رصيف محطة «صدفة» وهو يزحف داخلا تحت سلم الباب كأن الرصيف هو الذى يجرى. لم أكن لأطيق صبرا حتى يقف القطار نهائيا، فما صدقت أن هذا لهاث الرصيف وتثاقل زحفه حتى رميت بنفسى مقلدا أولاد البندر، حين يفعلون ذلك يجعلون وجوههم فى اتجاه سير القطار

حتى يمكنهم التماسك فى الأرض، لكننى لحظتها كنت معلقا على سلم الباب ملقيا ببصرى فى الاتجاه المعاكس الذى يخلفه القطار وراءه إذ أن عينى كانت ترقب الطريق الزراعى الذى سأرجع كل هذه المسافة لأسلكه إلى بلدتى «كوم سعيد»، فلما ألقيت بنفسى على الرصيف دفعنى الهواء المواجه بشدة وعنف فألقى بى فى الهواء بعيدا، لأفاجأ بنفسى منطرحا على ظهرى على مبعدة من سور الرصيف رافعا ساقى فى الهواء ممددا ذراعى والألم فى رأسى وظهرى لا يطاق ياخال. صرخت من عزم ما بى وقلت آه ياعمرى. لكنى لا أدرى كيف نهضت مسرعا كلمح بالبصر، لأرى الأرض مبذورة عنبا ورمانا وخوخا وتفاحا، وليس ثمة من راديو..

أخذت ألطم وجهى وأشد فى طوقى وأولول وأهلوس أصرخ لله ما يغيثنى. جاء نفر من الركاب يهرولون نحوى بكل لهفة وبقايا صراخ وصياح، فلما رأونى واقفا على حيلى ظهر الاطمئنان عليهم وصاروا يجمعون ما يمكن جمعه من فاكهتى وقد صارت كالكنافة يابوى، كنافة معجونة بعيد عنك. حاولنا وضعها فى الجعبة لكن الجعبة كانت تفتقت وتهرأت. بحثوا عن جرنان مع أحد فلم يجدوا فكوموها أمامى على الأرض وانصرفوا، ووقعت عينى فجأة على الراديو عند آخر الرصيف وقد صار إلى ثلاث قطع منفصلة وإن اشتبكت فى بعضها البعض بأسلاك وبدت السماعة كقبضة العجين سوداء مخرمة مليئة بالغموض واللمعان

كوجه النحوس التى تتصدى لى هذه الأيام ظلما وعدوانا والله يابوى. وليت نحو حطام الراديو فرأيت جوارها خرقة بالية كالحة سرعان ماتعرفت عليها فاذا هى الثوب الخلق الذى سبق أن جاءتنى به الولية أم صاحبى «ميمى» من جارتها وكان غطاء للعجين، اذ أننى حين خلعته فى دار صاحبى احتفظت به بغرض الانتفاع به فى لف شىء. قلت: ياما أنت كريم يارب، وانحنيت فجمعت اشلاء الراديو ووضعتها فى الخرقة وقد داخلنى شعور بأن أعرض أمره على سمكرى البلدة عله يتمكن من إعادة لحمه وتشغيله وعدوت على بقايا الفاكهة فجمعتها لففتها مع أشلاء الراديو فى الخرقة التى كان مقدرا لها أن تلف جسدى نفسه فى زنقتى ولكن ها هى ذى تلف أشلاء ذنبى تزفنى إلى الأهل خائبا أقول ياسابل الستر كفانى ما لحق بى من الكسفة والمذلة وأشملنى برحمانيتك الواسعة.

من حسن الحظ يا خال أن أحدا لم يتعرف على فى الطريق والكل يرد على سلامى كالماكينة: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته اتفضل يا أبو العم. الوحيد الذى تعرف على حقا هو أمى يا بوى. فتحت لى الباب فشهقت فدبت صدرها بالحيل صائحة بأشد عزم فى قلبها ولدى. فرميت بنفسى فى صدرها عابس الوجه كظيما. فما أن ردت وراءنا الباب حتى تفجرت باكيا، كأن كل بكائى داخل القطار كان الزلازل تسبق انفجار البركان الذى ينعطف على الأرض الملائمة. لم أكن أدرى أبكائى هذا أم بكاء

أمى.. لكننى كنت أوقن يا بوى أن صخور الحياة وكلاكيع المر المتكورة بأحشائى وفوق صدرى قد انصهرت وذابت من لحظة ما لامس خدى صدر أمى. بكيت نيابة عن كل الحواديت المرعبة التى وددت لو أحكيها لها ياخال، وعن كل الأخبار المؤلمة التى طالما استشعرت لذة حين أرى حالها إذ تعرفها. كان كل ما أريد أن أحكيه لها كثيرا يا بوى، معقد ومؤلم، فاكتفيت بالبكاء كلما تصيدت أمى مناسبة تجرنى فيها للحديث عن مصابى وغيابى كل هذه الشهور بدون حس ولا خبر. كنت فى بعض اللحظات أشرع فى أن أحكى لها يابوى، لكن عبرة البكاء تكتفنى عن الكلام فلا أكمل ولا أتكلم من الأساس..

إلى أن جاء يوم تأكدت فيه أن أمى قد تمكنت من ترجمة كل دمعة دمعتها ياخال، وباتت تعرف عنى كل شىء دون أن أحكيه لها بالكلام. ولما تأكدت هى أن مخزون الدمع فى عينى قد نضب، بدأ دورها هى فى البكاء وما أفظع بكاء الأم عندنا ياخال، أمى أنا بنوع خاص ينبوع بكاء، لم أر لبكائها ضريبا فى البر كله، تبكى الشهور وسنين خلت كان حالى فيها ـ وحالهم ـ يستحق البكاء الأليم. تحلف اليمين ياخال أنها لم يشغلها عن الاستمرار فى البكاء سوى نجاح السمكرى العفريت فى لحم صندوق الراديو وتجميع عدته والعكرشة فى أسلاكه حتى وش ونطق وصار عال العال ولكن بشرط أن نضع حجارة البطارية من الخارج فى

صندوق صغير خاص بها وموصول بالعدة بسلك ومربوط فى صندوق الراديو بحزام من الأستك. بات فرجة حقيقية نفخر بها على أهل الشارع كله ونلقى من أصواته العجائب والمدهشات، حتى أن سحنة وجه أمى قد تغيرت والله ياخال وانشدت بعد تهدل وكرمشة امتلأت بدم الحياة من أنفاسى فى الدار بعد جفاف وتحرق. صارت كل يوم تتنازل عن شىء من همومها وتخشبها حتى جاءت لحظة صارت تتمايل فيها مع موسيقات الراديو الراقصة، ولولا الحياة لهزت جزعها، لكن الحياء والحق يقال يا خال لم يكن يمنعها من أن تغنى أحيانا مع المغنى. تحلف اليمين ياخال أننى انحرق قلبى حزنا عليها وعلى نفسى من أجلها. أيقنت أن الولية ـ أمى ـ فى نفسها الفرح على أشده، وأخوتى البنات يعرفن ذلك ويحببنه حتى شوشة الدماغ.. فمن تراه يكون ذلك الشيطان الرجيم الذى يحكم علينا جميعا بأن نتوق للفرح ونشتهيه حتى الحزن الأليم حتى صار الحزن طبعنا وغيرنا فى ملذات النعيم غارق يلهو. قلت فى نفسى: والله لأفرحنك يا أم ويا أخوتى مهما كان الثمن باهظ التكاليف، سوف أفرحكن أشد الفرح ولو على جثتى وجثة الشيطان نفسه..

سلسلة اعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى